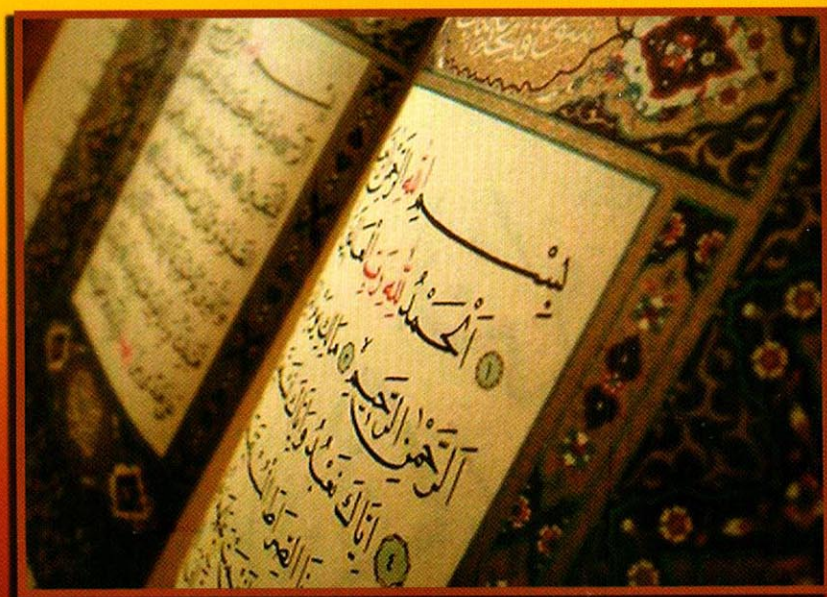


تفسير سورة الفاتحة



لفضيلة الشيخ العلامة
 محمد بن صالح العثيمين
 غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

نفسية سورة الفاتحة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٠٦

نَفْسِ سَيِّئَةٍ الْفَاتِحَةِ

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة الفاتحة/ محمد بن صالح العثيمين - ط٢ - الرياض: ١٤٣٤هـ

ص: ٢١×١٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين: ١٠٦)

ردمك: ٧-٤٥-٨٠٣٦-٦٠٣-٩٧٨

١ - القرآن، سورة الفاتحة - تفسير / - العنوان ب - السلسلة

١٤٣٤/٩٢٣٥

ديوي ٢٢٧.٣

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٩٢٣٥

ردمك: ٧-٤٥-٨٠٣٦-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ

يطلب الكتاب من:

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

القصيم - عنيزة ٥١٩١١ ص. ب ١٩٢٩

هاتف ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ / فاكس ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩ جوال ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

(www.binothimeen.com E.mail: info@binothimeen.com)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالى على حين فترة من الرسل وانطماس من السبل، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلقد كان لصاحب الفضيلة العلامة شيخنا الوالد محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى جهود مباركة في تعليم كتاب الله عز وجل وحث الناس على تلاوته وتدبر معانيه، والانتفاع بمواعظه، واستنباط الأحكام والفوائد من آياته الكريمة، سعيًا للعمل بها وتطبيقها.

وحيث أن سورة الفاتحة هي أفضل وأعظم سورة في القرآن المجيد وهي بآياتها السبع تشتمل على مجمل معاني القرآن الجليلة، فقد حرص - فضيلته - على تفسيرها في جلسات وحلقات علمية متعددة، وقد طبع تفسيره لها مع تفسير سورة البقرة عام ١٤٢٣ هـ.

وكان من تفسيراته المسجلة صوتيًا لهذه السورة العظيمة، درس في المسجد الحرام وآخر في المسجد النبوي، عقدهما رحمه الله تعالى عام ١٤١٠ هـ ضمن دروسه العلمية في الحرمين الشريفين.

وإنفاذاً للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى لإخراج تراثه العلمي، ورغبةً في تقديم هذا التفسير ميسراً للقارئ الكريم، أفرد في كتاب مستقل.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً مباركاً، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ويضاعف له المثوبة والأجر ويعلي درجته في المهديين إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٤٣٣/٥/٢٥ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فسوف نتكلم بما يمن الله به علينا من بعض المعاني التي تتضمنها سورة الفاتحة وأقول: «من بعض المعاني» لأن هذه السورة وصفها النبي ﷺ بأم القرآن^(١)، وأم الشيء مرجعه، فجميع معاني القرآن من أوله إلى آخره قد تضمنتها هذه السورة.

ولكن قبل ذلك أود أن أذكر بأهمية معرفة تفسير كتاب الله سبحانه وتعالى:

أورد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه الذي صنفه - وهو رسالة صغيرة في أصول التفسير - حيث قال^(٢): «وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَلَمَقْصُودُ مِنْهُ فَهُمْ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ الْفَاطَةِ فَالْقُرْآنُ أَوَّلَى بِذَلِكَ، وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يَسْتَشِرُّوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ!» أي: لا يستفسرون، ويطلبون من العلماء أن يبينوا لهم معناه مع أن كتاب الله - عز وجل - طب القلوب

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ (٤٧٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٢).

والأبدان ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وهذا الذي قاله هذا الشيخ الجليل - رحمه الله - يُوجب للإنسان الانتباه، لذا ينبغي لكل إنسان - ولا سيما الشباب - أن يستفسروا عن كلام الله، وأن يسألوا أهل العلم، وأن يراجعوا كتب التفسير؛ لأنه قد كان من هدي السلف خصوصاً الصحابة - وهم قدوتنا - رضي الله عنهم - أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها لفظاً وما فيها من العلم، وهذا هو المعنى، وما فيها من العمل، وهذا هو التطبيق، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً^(١).

وهكذا المؤمن يتربى بعلمه وينتفع به، ولا يكون كالخمار يحمل أسفاراً لا ينتفع بها، فلو أتيت بمجلدات من الكتب النافعة وحملتها على الخمار لن يصبح عالماً، وإنما هو بليد سواء حملته كتباً أم لا، وقد شبه الله - عز وجل - اليهود بالحمير، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥]، أي: لا ينتفع بها.

أما نحن، فنقرأ مئات الآيات، ولا نفهم منها علماً، ويقول أن نطبقها عملاً إلا من شاء الله، والذين لا يعرفون معنى ما يقرؤون وصفهم الله بأنهم أُمِّيُونَ فقال: ﴿ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابِ إِلَّا أَمَانِي ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: لا يعرفون الكتاب إلا قراءة، أما المعنى فلا، والقرآن إنما أنزل ليتدبر الناس آياته وليتذكروا ما فيه ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤١٠)، وابن جرير (١/ ٧٤).

ولا يمكن لبشر أن يحيطَ علماً بكلام الله - سبحانه وتعالى -؛ لأنَّ كلام الله صفةٌ من صفاته، لا يدركها البشر، ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال الله - عز وجل -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، قوله: ﴿بِحَدِيثٍ﴾ يشمل ولو آيةً.

إذن: لا يمكن أن يأتي أحدٌ من البشر بمثل كلام الله، ولا يمكن أن يحيط البشرُ بكلام الله، ويدلُّ على ذلك أنك إذا طالعت كتب التفسير وجدت أن علماء التفسير يتناولون القرآن من عدة أوجه: من جهة المعنى، ومن جهة البلاغة، ومن جهة الإعراب، ومن كل الجهات، ومع ذلك لا يمكن أن يوفوه حقَّه، راجع كتب التفسير من كل وجه تجد أن المفسرين لا يمكن أن يأتوا بكل ما يحتويه اللفظ القرآني أبداً، حتى إن الإنسان نفسه يقرأ الآية اليوم فيتبين له فيها معاني، ويقرأها في اليوم التالي فيتبين له معاني أكثر، ويتأمل فيزداد.

فقد سئل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «وَالَّذِي فَلقَ الحَبَّةَ، وَبرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمَّا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفِكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ

بِكَافِرٍ»^(١).

فأحثكم على تعلّم معاني كتاب الله - عز وجل -؛ لأنه كلام الله، والله لو نزل مرسوم ملكي فيما يتعلق بشئون الناس لوجدته في أيدي الناس كل واحد منهم يسأل الثاني عن معناه: ما المراد بهذه الجملة؟ ما المراد بهذه الجملة؟ والقرآن كلام الله أنزله إلينا لا تكاد تجد أحداً يستفسر ويسأل عن معناه، لهذا أحثكم مرة ثانية على الحرص على فهم كتاب الله - عز وجل -، ثم تطبيقه.

فأنت يا طالب العلم إذا حملت العلم فانتفع به، وأنت يا قارئ القرآن إذا حملت القرآن فانتفع به، اعرف معناه وطبقه حتى لا يكون القرآن حجةً عليك؛ لأن القرآن إما حجة للإنسان، وإما حجة على الإنسان^(٢).

إذن: ينبغي أن نعرف معنى هذه السورة العظيمة ولو على سبيل الإجمال وهي التي يقرأها كل مسلم سَبْعَ عَشْرَةَ مرةً في اليوم على أقل تقدير، حتى إذا قرأناها انتفعنا بها.

أما أن نقرأها ونحن لا نعرف المعنى فلا شك أن هذا تقصير شديد جداً، وإن كان من حيث الأجزاء وإبراء الذمة يجزئ، لكنه تقصير في الواقع.



(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير (٣٠٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٢٢٣).

أسماء سورة الفاتحة

لهذه السورة أسماء متعددة بلغت العشرة وزيادة، والعرب يقولون: كثرة الأسماء تدل على شأن المسمى، والله مئة اسم إلا اسمًا واحدًا، ولكل اسم تحمله هذه السورة الفضل دلالة على ما فيها من كمال:

١- الفاتحة؛ لأن الله تعالى افتتح بها أعظم كتاب، وهو القرآن الكريم، افتتح بها القرآن الكريم كتابةً، والفاتحة مؤنث فاتح.

٢- أم القرآن: سماها رسول الله ﷺ أم القرآن، والأم هو الأصل، ومنه يتفرع الفروع؛ لأن معاني ومقاصد القرآن كلها موجودة في هذه السورة رغم أنها سبع آيات فقط، وآيات قصار، لكن جميع مقاصد القرآن موجودة فيها، ففيها التوحيد بأنواعه من توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وفيها العقائد، وفيها ذكر الرسالات والنبوات، وفيها ذكر أتباع الرسل، وفيها ذكر المنحرفين عن طريق الرسل والتاريخ والأحكام والجزاء والعمل، وغير هذا، لكنها مذكورة إجمالاً غير مفصلة.

وإذا أمتعنا النظر في سورة الفاتحة وجدناها حقاً وكأنها الأم للقرآن الكريم، فالقرآن الكريم بمئة وثلاث عشرة سورة كله ينبع من هذه الأم وصدر عنها، وخرج منها، وتفرع عنها، والقرآن الكريم محتوي مضمونه:

أولاً: التوحيد، أي: دعوة الله - عز وجل - عباده إلى أن يعبدوه

وحده، وأن يكفروا بها سواء، وهذا أخذ من القرآن حظًا كبيرًا.

ثانيًا: المعاد، والدار الآخرة، والبعث، والجزاء، وهذا أخذ من القرآن أكبر حظ، فقد وجدنا سورًا تدور على تحقيق هذا المبدأ: (مبدأ البعث الآخر، أو الإيمان باليوم الآخر).

ثالثًا: التشريع: بيان أنواع العبادات، والقربات، وأنواع الأحكام والقوانين الشرعية، وكلها عبادة، وهذا أخذ - أيضًا - من القرآن الكريم قسطًا كبيرًا، خصوصًا السور المدنية جلّها.

رابعًا: القصص وأخبار الأولين، وهذا أخذ من القرآن حظًا كبيرًا وسورًا كثيرة كسورة نوح، وسورة القصص.

خامسًا: دار السلام بما فيها من إنعام وإكرام، ودار البوار والشقاء، وبيان ما فيها من العذاب والأذى، هذا أيضًا أخذ من القرآن حظًا كبيرًا. وسورة الفاتحة بآياتها السبع تشير إلى كل هذه العلوم والمعارف التي اشتمل عليها القرآن الكريم، فهي مفتحة بحمد الله، والثناء عليه بأسماؤه وصفاته، وهذا هو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، وما يوم الدين إلا يوم الجزاء، والجزاء يكون في البعث الآخر والحياة الثانية، فكل ما ورد من تفصيل ما فيه إنما هو نبع من كلمة الدين، الذي هو الجزاء، والمالك هو الله - جل وعلا -.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا الذي انبثق منه ونبع كل عبادة، وكل طاعة لله جاءت في القرآن الكريم، سواء في ذلك العبادات،

أم المعاملات، أو سائر الأحكام الشرعية؛ إذ هي عبادة تعبدا لله بما أَمَرْنَا أن نقوم به، وبما نهانا أن نفعله، وتعبدا بإقامة الحدود، والتسليم، والرضا بها.

أما قوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾، فكل ما جاء في القرآن من قصص وأخبار السابقين، وما يحمل من عظات وعبر إنما انبثق من هذه الآية الكريمة.

فسميت أم القرآن باعتبار أن كل ما في القرآن تفرع عنها، فهي كالأم، وكل ما سواها كالأبناء، فالتسمية حقيقية.

٣- السبع المثاني التي خَصَّها الله تعالى بالذكر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، قال النبي ﷺ «هِيَ الْفَاتِحَةُ»^(١)، ونص الله عليها بخصوصها من بين سائر القرآن تنويها بفضلها ومنزلتها في كتاب الله - عز وجل -.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٤٧٤).

مميزات هذه السورة

هذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها، منها:

١ - قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولهذا تسمى بتسمية النبي ﷺ أم القرآن^(١)، وأم الكتاب^(٢)، وأم الشيء مرجعه الذي يرجع إليه كما قال الشاعر:

عَلَى رَأْسِهِ أُمُّ لَنَا نَقْتَدِي بِهَا جَمَاعُ أُمُورٍ لَا نُعَاصِي لَهَا أُمْرًا^(٣)

يعني: علامة نتجه إليها ونقصدها.

ولهذا لم يوجب الله علينا أن نقرأ سورة في الصلاة إلا هذه السورة؛ لأنها قد حوت كل معاني القرآن.

٢ - أنها أفضل وأعظم سورة في كتاب الله حيث صح بذلك الحديث الشريف^(٤).

٣ - أن الله لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن أفضل منها^(٥).

(١) تقدم تحريجه (ص: ٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب يقرأ في الآخرين بفاتحة الكتاب (٧٧٦).

(٣) البيت لذي الرُّمَّة في ديوانه. وانظر جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٠٨/١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٤٧٤).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (٢٨٧٥)، وأحمد (٤١٢/٢).

٤- أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين، فرض الله على لسان رسوله ﷺ على كل مصل أن يقرأها في كل ركعة، فهي تتكرر على الأقل كل يوم سبع عشرة مرة، ولا تُقبل صلاة العبد ولا تصح حتى يقرأها؛ لقوله ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ»^(١)، وقال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ»^(٢). يعني فاسدة، والخداج هو الشيء الفاسد، وبهذا نعلم أن النفي في قوله: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٣) نفي للصحة؛ لأن قوله: «فَهِيَ خِدَاجٌ» - أي: فاسدة - يدل على أن قوله: «لَا صَلَاةَ» أي: لا صلاة صحيحة، وهذا هو المتعين.

ولهذا أطلق الله عليها اسم الصلاة في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»^(٤)؛ لأن الصلاة لا تصح إلا بها، وهذا يدل على أهميتها، وأنها من أهم ما يكون من كتاب الله؛ لأن صلاتنا التي هي ركن من أركان ديننا لا تصح إلا بها.

٥- أن الله - سبحانه وتعالى - يناجي العبد في الصلاة ويخاطبه، يقول الله - عز وجل - في الحديث القدسي الذي رواه عنه نبيه محمد ﷺ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة (٧٥٦)، ومسلم في كتاب

الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٤) ..

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥).

«قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَنِي وَيْنِ عِبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مُحَمَّدِي عَبْدِي»، الذي يحبيه الرب - عز وجل - من فوق عرشه وفوق سمواته، يسمعه ولو كان صوته خافتاً، فيقول: «مُحَمَّدِي عَبْدِي».

وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتُنِي عَلَيَّ عَبْدِي. معنى «أَتُنِي» يعني: كرر الحمد مرة ثانية؛ لأن الحمد وصف المحمود بالكمال والإفضال مع المحبة والتعظيم، فإذا قلت: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فقد أَعَدَّت وصفه بالكمال مرة ثانية، وهو مأخوذ من الشئ، وهو الرجوع، يعني: رجع مرة ثانية ليحمدني.

وَإِذَا قَالَ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قَالَ: «مُحَمَّدِي عَبْدِي»، والمجد يدل على العظمة والملك، وإنما قال في هذه الآية ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: «مُحَمَّدِي عَبْدِي»؛ لأن الملك فيه مجد وعظمة وسلطة، هذا هو السبب، ولهذا يقول العرب: «في كلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَّارُ»^(١).

استمجد يعني: قَوِيَ؛ لأن وزن (استفعل) لا يلزم أن يكون بمعنى الطلب مثل: ﴿وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦].

ويوم الدين تظهر فيه عظمة الرب - عز وجل -، قال الله تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، في ذلك اليوم لا يتكلم أحد: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ

(١) جمع الأمثال للميداني (٢/ ٧٤، رقم ٢٧٥٢)، وانظر لسان العرب مادة (مرخ).

وَقَالَ صَوَابًا ﴿النَّبَأُ: ٣٨﴾، وقال - عز وجل -: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، ففي ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تمجيد
للرب - عز وجل -.

فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قَالَ الله: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ
عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»؛ لأن العبادة لله، والاستعانة للعبد، فلا استعانة
يتقوى بها الإنسان على العبادة، فهي قوة له، والعبادة لله وحده، ولهذا
يمكن أن أقول لشخص: أَعْنِي، ولكن لا يمكن أن أعبد شخصًا؛ لأن
العون لي، لكن العبادة لله، يجوز أن أقول: فلان استعان بفلان وهو
حي، أي: ساعده وأعانه، لكن لا يمكن أن أقول: فلان عَبْدَ فلانًا؛ لأن
العبادة لله وحده لا شريك له.

فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿. قَالَ: «هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»،
الحمد لله، هذه نعمة عظيمة.

فينبغي على الإنسان إذا قرأها - لا سيما في الصلاة - أن يقف على
كل آية؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يناجي العبد في الصلاة، إذا قال:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: «مُحَمَّدُ عَبْدِي» كما في حديث أبي
هريرة - رضي الله عنه -.

فأذكر نفسي وإياكم بأن نستحضر ونحن نقول هذه الآيات أن الله
يناجينا؛ لنعرف أن الصلاة صلة بين العبد وربّه، ولهذا قال النبي - عليه
الصلاة والسلام -: «إِنَّمَا حُبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ

قُرْءٌ عَنِّي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، فهي قرءة عين المؤمنين، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.

وهنا سؤال يمكن أن يورده بعض الناس، فيقول: إذا كان في المسجد عشرة آلاف كلهم يقرءون الفاتحة، الأول يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والثاني يستفتح السورة لما يكملها بعد، والثالث قرأ الفاتحة وقد انتهى منها أو أوشك على الانتهاء منها، فهل يكلم الله أحدهم أم يُكَلِّم الكل؟

نقول: يكلم الكل، إن الله - عز وجل - وسع كل شيء رحمةً وعلماً، فلو كانوا آلافاً مؤلفةً، ولو اختلفت أقوالهم فالكل يجيبه الله، وهو على كل شيء قدير، والرب - عز وجل - ليس مثل أحد من المخلوقين حتى نقول: إذا شُغِلَ بأحدنا انشغل عن الآخر، فالرب - عز وجل - لا يلهيه شيء عن شيء، فهو يكلم هذا ويناجيه، ويكلم الثاني كذلك، كما أنه يحاسب الخلائق كلهم يوم القيامة في نصف نهار كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، والقائلة تكون في نصف النهار.

إذن: لا تظن أيها المؤمن أن صفات الله كصفات العباد أو كصفات الخلق، بل يجب أن تؤمن بكل ما جاء في القرآن والسنة من صفات الله، وألا تقيسه بصفات المخلوقين.

٦- أنها رقية عظيمة للمرضى، فإذا قرئ بها على المريض شفي بإذن

(١) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٣٣٩١)، وأحمد (١٢٨/٣).

الله، دليل ذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بعث سريةً مبعثاً، فنزلوا على قوم ضيوفاً، ولكن القوم لم يضيفوهم ولم يكرمهم، وهذا لؤم وبخل؛ إذ إن العرب في جاهليتها تكرم الضيف، لكن هؤلاء ما أكرموا سرية رسول الله ﷺ التي بعثها الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فاعتزلوا ناحيةً، فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء، أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرؤنا، ولا نفعل حتى نجعلوا لنا جُعلاً. فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأمر القرآن، ويجمع بزاقه، ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه، فضحك، وقال: «وما أدراك أنها رقية، خذوها، واضربوا لي بسهم» صلوات الله وسلامه عليه، قال: «اضربوا لي بسهم» يعني: أعطوني منه، إنما قال ذلك لا للحاجة إلى السهم، وإنما ليطيب قلوبهم، ولأجل أن يطمئنوا؛ لأن المفتي إذا فعل ما يفتي به صار ذلك أبلغ طمأنينة في قلب المفتي له.

ثم قال للرجل الذي قرأ بالفاتحة على هذا اللديغ فبرئ: «وما أدراك أنها رقية»^(١)، قال ذلك إقراراً له بأنها رقية يرقى بها المرضى، ويشفون بأمر الله - عز وجل -.

إذن: فإن أحسن ما نقرأ على مرضانا وعلى من أصيب منا بمثل هذه الأمور الفاتحة، لكن - نسأل الله أن يرحم ضعفنا - فقد يأتي أحدنا ويقرأ الفاتحة عشرين مرة، ولا يبرأ المريض؛ لأن القارئ غير القارئ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية (٢٢٧٦)، ومسلم في كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة (٢٢٠١).

والقراءة لا تنفع إلا بثلاثة شروط:

أ- قابلية المحل، فلو كان الإنسان المقروء عليه غير قابل ما نفعت، يعني: لو قرأت على مريض، والمريض يشك، ويقول: والله ما أدري عن هذا وقراءته، أذهب للمستشفى أحسن، فإنه لن ينتفع.

ب- أهلية القارئ، فلو كان القارئ غير أهل ما نفعت أيضاً.

ج- صلاحية القراءة، فلو قرأ الإنسان ما لا يصلح من هذه العزائم، وما أشبه ذلك لم تنفع.

فلا بد من أهلية القارئ، وقابلية المحل، وصلاحية المقروء - بمعنى أنه ثبت به الشرع - وإلا فإنه لا ينفع، فلو قرأت ألف مرة وأنت في شك ما انتفعت.

٧- أنه قد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة، لكن ليست هي أول ما نزل، بل إن أول ما نزل من القرآن قول الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]، فأكملها الله تعالى، ثم أنزل السور، فالله أعلم.

٨- أنها مشتملة على الدعاء، وعلى أفضله: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وعلى آداب الدعاء، فحمد الله تعالى، ثم الشاء عليه، ثم تمجيده، ثم التوسل إليه بالعبادة وحده، والاستعانة به دون سواه، هذه آداب الدعاء، ولهذا يرجى أن يستجاب للداعي إذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

هو أتى بهذه الآداب؛ إذ صح أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو، ويقول: يا رب، يا رب، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «عَجِلْ هَذَا». ثُمَّ دَعَا فَقَالَ لَهُ أَوْ لغيرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ - جَلَّ وَعَزَّ - وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدَ بَإِشَاءٍ»^(١)، وهذا هو أدب الدعاء، أحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم صلَّ على نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وبعدها سلَّ حاجتك، وأمِّل أن يُستجاب لك.

تنبيه:

قد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخطب، ويقرؤونها عند بعض المناسبات، وهذا غلط، تجده مثلاً إذا دعا قال لمن حوله: الفاتحة، يعني: اقرؤوا الفاتحة.

وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه أو في أحواله، وهذا أيضاً غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف والاتباع.



(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (١٤٨١)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات (٣٤٧٧)، والنسائي في كتاب السهو، باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ، رقم (١٢٨٥)، وأحمد (١٨/٦).

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف، وهذا المحذوف يُقدَّرُ فعلاً متأخراً مناسباً، فإذا قلت: «باسم الله» وأنت تريد أن تأكل تقدر الفعل: باسم الله أكل، والتقدير هنا في هذه السورة: باسم الله أقرأ.

ومعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرأ مستعيناً ومتبركاً باسم الله، هذا إذا أردت أن أقرأ، وفي الوضوء: أتوضأ مستعيناً ومتبركاً باسم الله، وعند الذبح: باسم الله أذبح متبركاً ومستعيناً باسم الله.

و«اسم» هنا مفرد لكنه مضاف، ولفظ الجلالة مضاف إليه، يقول العلماء: إن المفرد المضاف يفيد العموم، يعني: يدل على كل شيء، وليس على واحد فقط، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] هذا الشاهد، ﴿نِعْمَتَ﴾ مفرد، ومع ذلك نعمة الله لا تحصى، ولا حصر لها.

وقد قال العلماء: إن «اسم الله» هنا يشمل جميع أسماء الله، فكأنك عندما تقول: «بسم الله» كأنك تتبرك وتستعين بكل اسم من أسماء الله، وليس باسم واحد فقط.

وقولنا: «متعلق بمحذوف»؛ لأن الجار والمجرور معمولان، ولا بد لكل معمول من عامل.

وقدرناه متأخراً لفائدتين:

- الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله - عز وجل -.
- الفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركاً به ومستعيناً به إلا باسم الله - عز وجل -.

وقدرناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، وهذه يعرفها أهل النحو، ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

وقدرناه مناسباً؛ لأنه أدلُّ على المقصود، ولهذا قال الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»^(١)، أو قال ﷺ: «عَلَى اسْمِ اللَّهِ»^(٢) فخص الفعل.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾ هذا اللفظ عَلم على ذات الرب - عز وجل - يختص به، لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء، ولهذا تأتي الأسماء تابعة له، فيأتي دائماً متبوعاً إلا في مواضع قليلة، مثل قوله تعالى: ﴿صِرْطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٣) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴿﴾ [إبراهيم: ١-٢]، فإن هذه الكلمة تابعة لما قبلها، وهو قليل.

وهو يدل على الألوهية، وهي العبادة، أي: باسم الذي لا معبود

(١) أخرجه البخاري في كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٩٨٥)، ومسلم في كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: «فلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ»، (٥٥٠٠)، ومسلم في كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

بحق إلا هو - عز وجل -، فهو الله، هو الذي لا يعبد بحق إلا هو - سبحانه وتعالى -.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: ذو الرحمة الشاملة الواسعة، ولهذا جاء على وزن «فَعْلَان» الذي يدل على السعة.

وقوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده، ولا سيما المؤمنون، ولهذا جاءت على وزن «فَعِيل» الدال على وقوع الفعل، فرحمة الله للمؤمنين ولغيرهم، لكن رحمة الله للمؤمنين خاصة ليست كرحمته للكافرين.

فهنا رحمةٌ هي صفته، هذه دل عليها ﴿الرَّحْمَنُ﴾، ورحمةٌ هي فعله - أي: إيصال الرحمة إلى المرحوم - دل عليها ﴿الرَّحِيمُ﴾.

و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر، أي: الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

ولو جيء بالرحيم وَحْدَهُ، أو الرحمن وَحْدَهُ لشمّل الوصف والفعل.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها السمع والعقل.

أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله، وهو كثير جداً.

وأما العقل فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وَصَفَ الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى

الإنعام، أو إرادة الإنعام؛ زعمًا منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك، قالوا: لأن الرحمة انعطاف ولين وخضوع ورقة، وهذا لا يليق بالله - عز وجل -.

والرد عليهم من وجهين:

الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع وانكسار ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمةً دون أن يكون منهم خضوع ورقة وانكسار.

الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة ومقتضياتها فإنها هي رحمة المخلوق، أما رحمة الخالق - سبحانه وتعالى - فهي تليق بعظمته وجلاله وسلطانه، ولا تقتضي نقصًا بوجه من الوجوه.

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله - عز وجل -، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بينها يدل على رحمة الله - عز وجل -، ولأن الرحمة كمال، والله أحق بالكمال.

ثم إن ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها كإنزال المطر، وإزالة الجذب، وما أشبه ذلك يدل على رحمة الله.

والعجب أن مُنْكَرِي وَصْفِ اللَّهِ بِالرَّحْمَةِ الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا إرادة حقيقةً بحجة عقلية أَخْفَى من الحجة العقلية على رحمة الله؛ حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلاً على الإرادة، ولا شك أن هذا صحيح، ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه

لا يتفطن لها إلا أهل النباهة، وأما آثار الرحمة فيعرفها العوام، فإنك لو سألت عامياً صباح ليلة المطر: بِمَ مُطِرْنَا؟ لَقَالَ: بفضل الله ورحمته.
مسألة:

هل البسملة آية من الفاتحة؟

في هذا خلاف بين العلماء، فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة.

والعدد الذي في المصاحف المطبوعة الآن مبنيٌّ على أن البسملة من الفاتحة، ولهذا مكتوب بعد البسملة رقم (١)، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رقم (٢).

ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة، ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق، ودليل هذا: النص، وسياق السورة.

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^(١)، ولم يقل: «فإذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة، كما أن بقية السور ليست بالبسملة آيةً منها، فكَذَلِكَ سورة الفاتحة.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لَا يَذْكُرُونَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ، وَلَا فِي آخِرِهَا^(٢). والمراد: لَا يَجْهَرُونَ، والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه يدل على أنها ليست منها كما أننا لَا نجهر بالاستفتاح؛ لأنه خارج عن الفاتحة، ولو كانت البسملة منها لكان لها حكم الفاتحة نجهر بها.

وأما من جهة السياق:

من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾؛ لأن قبلها ثلاث آيات، وبعدها ثلاث آيات، وهي الآية التي قال الله فيها: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»؛ لأن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأولى، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب حجة من قال: «لا يجهر بالبسملة» (٣٩٩).

الثانية، ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الثالثة، وكلها حق خالص لله - عز وجل - .
 و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الرابعة، يعني الوسط، وهي قسمان:
 قسم منها حق لله، وقسم حق للعبد: العبادة من حق الله، والاستعانة
 لمصلحة العبد؛ لأن الاستعانة هي طلب العون، تستعين به على أمورك
 كلها: على العبادة، وعلى الأكل، والشرب، والنوم، والخروج، والذهاب،
 وعلى كل شيء، فهي لك، والكل من مصلحة العبد.

و﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ للعبد، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبد،
 ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ للعبد، ثلاث خالصة للعبد، ولهذا
 يقول - عز وجل -: «هَذَا لِعِبْدِي، وَلِعِبْدِي مَا سَأَلَ».

فتكون ثلاث آيات لله - عز وجل -، وهي الثلاث الأولى، وثلاث
 آيات للعبد، وهي الثلاث الأخيرة، وواحدة بين العبد وربّه، وهي
 الرابعة الوسطى.

ثم من من حيث اللفظ: آيات السورة متقاربة، فإذا قلنا: إن
 البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين،
 فلا تتناسب مع الآيات التي قبلها؛ لأنها ستكون: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وهذه تساوي آيتين، قارنهما
 بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تكون طويلة لا نسبة بينهما، لكن
 إذا قَسَمْتَ الآية الأخيرة هذه نِصْفَيْنِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
 غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ صارت الآيات الآن متناسبة في
 الطول، ومن المعلوم أن تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل،

بل من البلاغة أن تكون الآيات متقاربة.

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة، وأن الإنسان لو اقتصر على ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر السورة فصلاته صحيحة، ولهذا كان الصواب أن آخر الآية السادسة قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

كما أن البسملة ليست من بقية السور، فليست من السورة التي قبلها، ولا من السورة التي بعدها، بل هي آية مستقلة يؤتى بها في أول كل سورة إلا سورة ﴿بَرَاءَةٌ﴾؛ فإن الصحابة - رضي الله عنهم - لم يكتبوها في هذه السورة، فبقيت بدون بسملة.

وأما ما اشتهر عند العوام من أن الجن اختطفوا بسملة سورة ﴿بَرَاءَةٌ﴾ فهذا باطل بلا شك؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].



﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الحمدُ: وُصفُ المَحمود بِالكمال مع المحبة والتعظيم، يعني أنك إذا قلت: أحمد الله أو: الحمد لله فمعناها أصفه بكل كمال، فحمد الله هو وصفه - تبارك وتعالى - بالكمال الذي لا فوقه كمال.

وأما القول بأن الحمد هو الثناء بالجميل الاختياري فهذا غلط؛ لأن الله فَرَّقَ بين الحمد والثناء، فقال في الجملة الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: «حَمْدِي عَبْدِي»، وفي الثانية قال: «أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي»، ففَرَّقَ اللهُ بين الحمد وبين الثناء، ولو فسرناها بالثناء لم يكن لقوله في ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: «أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي» فائدة.

فالحمد وصف المَحمود بِالكمال مع المحبة والتعظيم وإن لم يتكرر، والثناء لا بد فيه من تكرار الوصف بالكمال، فإذا كَرَّرَ صار ثناءً. وليس معنى الحمد التمجيد، ولا الشكر، هذا خطأ عظيم. والحمدُ له سببان:

السبب الأول: كمال المَحمود: الكمال الذاتي الذي يكون لازماً للذات، والوصفي، والفعل، فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله.

قال الله عن نفسه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿الْمَثَلُ﴾ معناه الصفة، والدليل على أن المثل يأتي بمعنى الصفة قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد: ١٥].

فله الصفة العليا، وكل وصف كمال فَلِلَّهِ - عز وجل - أكمله،
فِيْحَمْدِ اللَّهِ عَلَى كَمَالِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾
[الإسراء: ١١١]، هذا وصف يتعلق بكمال الصفات.

فمثلاً ربنا - عز وجل - كامل الحياة، والدليل قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لكمال حياته
لا تأخذه السَّنة - يعني النعاس - ولا النوم العميق.

كامل القدرة، قال الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]،
وقال: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ
عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾
[الأنعام: ١]، من باب كمال صفاته (قدرته على الخلق).

أَضْرَبُ لَكُمْ مَثَلًا بَسِيطًا، يَمُوتُ النَّاسُ بِلِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، يَمُوتُونَ
فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، كُلُّهُمْ يَمُوتُونَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ
قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، كُلُّ الْعَالَمِ قَائِمٌ يَنْظُرُ، قَالَ اللَّهُ - عز وجل -:
﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُثَبِّتَنِي وَإِيَّاكُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ. يَصَاحُ بِهِمْ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنْظُرُونَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ
[النازعات: ١٣-١٤].

هناك أيضًا آية عجيبة حصلت لنبي من الأنبياء، حصلت في لحظة

واحدة، لو اجتمعت قوى العالم ما حصل منها ذلك، لما جمع فرعون جنوده ليقضي على موسى وقومه، خرج موسى وقومه من مصر متجهين نحو البحر الأحمر، وعندما وصلوا إلى البحر الأحمر فإذا البحر أمامهم وفرعون خلفهم، فقال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، ثلاثة مُؤَكَّدَات: «إِنْ»، واللام، والثبوت الذي أفاده أن الجملة اسمية، إِذَا: قالوا: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾، البحر أمامنا، وفرعون وجنوده خلفنا، كل إنسان سيقول هذه المقالة، ولكن انظر إلى الثقة بالله - عز وجل - واليقين، قال موسى قول موقن بالله: ﴿كَلَّا﴾ لَسْنَا بِمُذْرِكِينَ ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. الله أكبر، اللهم اجعلنا من الموقنين. أيقن أن الله معه، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾، عصا عادية ضرب بها البحر، ﴿فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، الطَّوْدُ يعني الجبل العظيم، كل فرق كالطود، اثني عشر طريقاً واسعاً، والماء - سبحانه الله - بين هذه الطرق كالجبال، الماء بطبيعته سيَّال، لكنه بأمر الله وُطِدَ، حتى قال بعض المفسرين: إن الله جعل في هذه الأطواد فُرْجًا؛ لأجل أن يرى بنو إسرائيل بعضهم بعضاً حتى لا يقلقوا على إخوانهم الآخرين، فكان ينظر بعضهم إلى بعض من خلال هذه الفُرُج.

انفلق البحر بإذن الله، والله لو تأتي قنابل ذرية ما تفعل هذا الفعل، وقوة الله فوق كل شيء، في لحظة، عصا عادية يتوكل عليها ويهش به على غنمه ضرب بها هذا البحر فحصل هذا الإنفلاق.

كانت الأرض وحلاً وكان الماء عليها أحقاباً من الزمن، وفي لحظة

يبس الطريق؛ قال تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَمْهُم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]، في لحظة يَبَسِ الطريق، سبحان الله العظيم! والله، إن مثل هذه القصة توجب للمؤمن الموقن - وأسأل الله أن يملأ قلبي وقلوبكم إيمانًا و يقينًا - ألا يخاف من أحد، لا تخف من أحد، لا تعلق خوفك بمخلوق، المخلوق مثلك، لو شاء الله لدمره ودمر ما يهدد به الخلق، اعتمد على الله، وافعل الأسباب التي أمرت بها، لكن لا تعلق قلبك بغير فاطر الأرض والسموات - سبحانه وتعالى -، ولا تعلق بقاءك أيضًا بأحد، لا تقل: عندي من يدافع عني، وكذا وكذا، أبدًا هذا ما ينفع، فكم من سبب أخفق! وكم من مهيب سقط! الأمر بيد الله - عز وجل -، اجعل قلبك معلقًا بربك حتى تطمئن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، اللهم اجعل قلوبنا مطمئنة بذكرك يا رب العالمين.

إذن: هذا المثال الذي ذكرنا يدل على كمال قدرة الله - عز وجل - فهو يستحق الحمد لكمال قدرته، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ، مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ويحمد الله على كمال صفاته، وهذا هو الكمال الذاتي.

والسبب الثاني: إفضال المحمود، يعني إنعامه، وهو الإحسان إلى الخلق، ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، فهذا حمدٌ على كمال الإحسان (على النعم).

ومن ثَمَّ شُرِعَ للإنسان إذا أكل أن يقول: «الحمد لله»، وإذا شرب أن يقول: «الحمد لله»، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهِ، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»^(١)، فينبغي للإنسان أن يضع لنفسه شعورًا في هذه المسائل، حتى عند شرب الشاي وعند شرب القهوة - مثلاً - إذا انتهيت فقل: الحمد لله.

والله محمود على الوجهين، يعني أنه محمود لكمال صفاته - سبحانه وتعالى - ومحمود لكمال إفضاله وإنعامه، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، هذا حمد على كمال صفاته وإحسانه أيضًا؛ لأن تنزيل الكتاب لمصلحة الخلق.

إذن: حمد الله معناه: وصفه بالكمال الذاتي، والكمال الذي يتعلق بالغير.

وقولنا: «مع المحبة والتعظيم» لا بد من هذا القيد، قال أهل العلم: لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم لا يسمى حمدًا، وإنما يسمى مدحًا، ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح، لكنه يريد أن ينال منه شيئًا، فتجد بعض الشعراء يقف أمام الملوك والأمراء والوزراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم، أو تعظيمًا لهم، ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفًا منهم، أو هبة لهم، أو ما أشبه ذلك، ولكن حمدنا ربنا - عز وجل - حمدٌ بمحبة وتعظيم، فلذلك صار لا بد من القيد في الحمد أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله (٢٧٣٤).

و«أَل» في «الْحَمْدُ» للاستغراق، أي: جميع المحامد من كل وجه لله - عز وجل -، ففي الآية إثبات الحمد الكامل لله - عز وجل -.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، أما كونها للاختصاص، فلأنه لا أحد يحمد بجميع المحامد إلا الله، وأما كونها للاستحقاق، فلأنه لا أحد يُحَمَّدُ حمدًا يستحقه على وجه الكمال إلا الله - عز وجل -.

وأما غير الله فلا يحمد حمدًا كاملاً، وإنما يحمد حمدًا جزئياً على شيء معين، حتى من تفضل بشيء غير الله - عز وجل - فإنه لا يعدو أن يكون سبباً ووسيلة، لو أن شخصاً أهدى إليك مصحفاً فلا شك أنه أحسن إليك، لكن الإحسان الأصلي لله، هو الذي سخره حتى أهدى إليك مصحفاً، فهو وسيلة وسبب فقط، وأما المنعم حقيقة فهو الله - عز وجل -.

إذن: المستحق للحمد هو الله، المختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه هو الله، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(١).

و«الله» علمٌ على رب العالمين جل وعلا، فهو اسم ربنا - عز وجل - لا يسمى به غيره، ولا يوصف بها غيره؛ لأن الألوهية وصف خاص برب العالمين جل وعلا، ومعناه: المألوه، أي: المعبود حباً وتعظيماً.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الحامدين (٣٨٠٣).

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، «الرب» هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير.

فهو الخالق - عز وجل -، خلق السماوات، وخلق الأرض، وخلق الإنسان، وخلق الملائكة، وخلق كل شيء، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ فَعْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، لا أحد يخلق إلا الله، يقول الله - عز وجل -: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، كل الذين تدعون من دون الله وتدعون أنهم أرباب لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له كلهم فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، لو اجتمع الخلق كلهم على أن يُوجدوا حيواناً ضئيلاً ضعيفاً مهيناً ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقال الله تعالى مُنْذَرًا بِالْأَصْنَامِ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ مَأْتَتْ تَخْلُفُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]، الحيوانات المُنَوَّية وليس فيها روح لا يستطيع الخلق أن يخلقوها مع أنها تخرج من ذات أنفسهم، وهم لم يخلقوها.

الحبة يضعها الحارث في الأرض، ويسقيها، فتنبُت، مَنْ الذي فَلَقَهَا؟ اللهُ - جل وعلا -، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿١٣﴾ مَأْتَتْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤]، بل أنت يا ربنا.

يقولون: إنهم خلقوا إنساناً صناعياً، يُسمى (الإنسان الآلي)، يشتغل على الكمبيوتر، وترسله، فتقول له: اذهب أخصِرِ القهوة، فيذهب ويُخَصِرُ القهوة، هذا الإنسان الصناعي، هل يمكن أن نقول: إنَّ هذا خَلْقٌ؟!

هذا الإنسان الصناعي يأتي أدنى واحد من الصغار من بني آدم يصفعه على وجهه مرتين أو ثلاثاً، ولا ينتقم لنفسه، إذاً: ليس بشراً، حتى لو قالوا: خلقنا، نقول: ما خلقتم، هذه صنعة، والله الذي خلق مادة هذا الشيء، وغاية ما هنالك أن الصانع يحوّل الشيء من صفة إلى صفة، فالنجار مثلاً يحوّل الخشبة إلى باب، والحداد يحوّل صفائح الحديد إلى سيارات مثلاً، أما الخالق حقيقةً فهو الله سبحانه وتعالى.

وهو المالك لكل شيء، فلا ملك لأحد سوى الله - عز وجل - فهو الذي يملك الملك التام المطلق العام، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - وهو يُعزِّي ابتته، أرسل إليها الرسول، وقال له: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلتَصْبِرِ وَلتَحْتَسِبِ»^(١).

وأملك غيرِه محدودةٌ من حيثُ الشمولُ، فأنا أملك حقيقة دروسي وأنت لا تملكها، وأنت تملك حقيقة دروسك وأنا لا أملكها، فلا أحد يملك كل ما في السماوات والأرض.

وهي محدودةٌ من حيثُ التصرفُ، فلا أحد يملك أن يتصرف فيما

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت...» (١٢٨٤)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٣).

يملكه ملكًا خاصًا إلا حَسَبَ ما شَرَعَ اللهُ - عز وجل -، فلو أراد أن يُتْلَفَ ماله فإنه لا يملك ذلك، وإذا أتلَفه فهو آثم، وإذا أتلَفه حَجَرْنَا عليه وَمَنَعْنَاهُ من التصرُّف، ولهذا نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال^(١).

لكن الملك المطلق التام العام هو الله وحده، يتصرف في خلقه كما يشاء، يُعطي ويمنع، يُعز ويذل، يحيي ويميت، يرفع ويخفض، إلى غير ذلك من أنواع التصرفات في ملكه سبحانه وتعالى.

فإن قال قائل: قد أثبت الله الملكَ لغيره فقال في كتابه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحِجَهُ﴾ [النور: ٦١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، فكيف تقول: إنه لا مالك إلا الله؟!!

فالجواب: أن ما يملكه البشر هو جزء مما يملكه الله، فملك البشر ناقص قاصر.

وهو المدبِّر - جل وعلا - لجميع الأمور بما يريد، وبما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

فالتدبير التام الشامل المطلق لله - عز وجل -، بمعنى يدبر كما يشاء، ولا أحد من الخلق يملك التدبير المطلق أبدًا، حتى المشركون يُقْرَون بأن الذي يدبر الأمر هو الله - عز وجل -.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال (٦٤٧٣)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل (٥٩٣).

فأنت لو دبرت شيئاً فإنما تُدبره على وجهٍ محدود، تستطيع أن تُدبر عبدك الذي تملكه، لكن لا تدبره تدبيراً مطلقاً، بمعنى أن تأمره أن يدخل في النار فيحترق، أو ينزل في البحر فيغرق، لكن الله - عز وجل - يملك ذلك.

قد يسلط الحرائق فتحرق الخلائق، قد يدبر المياه فتغرق، ولا يخفى أن الله تعالى أغرق قوم فرعون إلا مَنْ آمَن، ولا يخفى أن الله دمر عاداً بالرياح فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، لكن غير الله لا يملك هذا.

واعلم أن الله تعالى لا يدبر شيئاً عبثاً أو لغير حكمة، كل ما قضاه الله وقدره ودبره فهو لحكمة عظيمة، لكن من الحكَم ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، وذلك لأن عقولنا أقصر وأحقر من أن تحيط بحكمة الله - عز وجل -.

يرد على الإنسان أشياء من الشريعة، ويقول: كيف يحرم هذا؟ مثال ذلك: يقول مثلاً: كيف يحرم على الإنسان أن يستبدل صاعاً من البرّ طيباً بصاعين من البرّ رديئة والقيمة واحدة؟! هذا قد يُشكل على الإنسان، فنقول: إنك لست أحكم من الله، ولولا أن هذا يترتب عليه مفساد عظيمة ما حرمه الله على العباد؛ لأن الله يريد بالعباد اليسر، ولا يريد بهم العسر، ولا يمكن أن يمنعهم أي معاملة إلا وفيها ضرر: إما منظور، وإما منتظر.

يشكل على الإنسان أن الله تعالى يقدر الحروب والفقر وجذب الأرض وقحط السماء فلا تنزل ماء، فيقول: ما هذا؟ ما الفائدة؟ هذه

مضرة على العباد، فنقول: لست أحكم من الله، إن الله تعالى لا يقدرها إلا لحكمة عظيمة قد تعلمها وقد لا تعلمها.

ولهذا يجب أن نستسلم للقضاء الشرعي كما نستسلم للقضاء القدري، القضاء القدري كل مستسلم به حتى الكفار، ﴿وَلَهُ أَسَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، لكن القضاء الشرعي لا يستسلم له إلا المؤمنون.

ونحن يجب علينا أن نستسلم للقضاءين الشرعي والقدري، وإن شئت فقل: أن نستسلم للقضاء الشرعي كما نحن مستسلمون للقضاء القدري.

﴿وَأَسْلَمَ﴾ قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالم، لكنهم أصناف: عالم البشر، عالم الحيوان، عالم الملائكة، عالم الجن، عالم النبات، عالم الأفلاك حتى السماء والأرض والجبال والنجوم والشمس والقمر، وهكذا كل الخلق عالم، كل شيء هو داخل في الآية، فهو رب كل شيء - عز وجل -، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

وهذا اللفظ مشتق من العلامة، والعلم على الشيء هو الدليل على الشيء، ومنه العلم الذي يُحمل في الحرب ليكون علامة على الفئة أو الطائفة، فوصفوا بذلك؛ لأنهم علم على خالقهم - سبحانه وتعالى -، أي: دليل وبرهان قاطع على أن هذا الكون خالقاً؛ لأن وجود هذا الكون وما يحدث فيه كله آية وعلامة على الله - عز وجل -، قال الله

- عز وجل :- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
[الذاريات: ٢٠-٢١].

الله سبحانه يتحدى الخلق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾
[الطور: ٣٥]، الجواب: لا هذا ولا ذاك، ما خلقوا من غير شيء، ولا هم
الذين خلقوا أنفسهم، وكيف يخلقون أنفسهم وهم معدومون؟! كيف
يوجد نفسه من كان معدوماً؟! إذاً لا هذا ولا هذا، فيتعين بالسبر
والتقسيم أن الخالق هو الله، ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الطور: ٣٦]،
لا، هم يَقْرُونَ بذلك: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

ففي كل شيء من المخلوقات في كل جنس منه، ونوع منه، وكل
فرد منه وفي جزء كل فرد منه آيةٌ تدلُّ على الخالق، وعلى وحدانيته -
سبحانه وتعالى -، وعلى عظمته، وقدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته،
وانفراده بالملك، وغير ذلك من معاني ربوبيته، قال الشاعر بيتاً يحمل
هذا المعنى^(١):

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُغْصَى الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَخْجَدُهُ الْجَا حِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

كل شيء تتأمله تجد أنه دال على الرب - عز وجل -، وعلى حكمته
ورحمته، كل شيء فيه آية تدل على وحدانيته.

(١) هو أبو العتاهية. انظر أبا العتاهية أشعاره وأخباره، ص (١٠٤)، والأغاني (٤/ ٣٥)،
والبحر المحيط (٢/ ٤١٩)، ويروى أيضاً عن ابن المعتز.

جسْمُكَ وَرُوحُكَ فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ مَا يَبْهَرُ الْعُقُولَ، وَاسْأَلُوا عِلْمَاءَ
التَّشْرِيحِ وَالطَّبِّ مَاذَا يَعْلَمُونَ عَمَّا فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ؟
وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَصِلُوا إِلَى الْغَايَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ
قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَالرُّوحُ
الَّتِي هِيَ فِي جَوْفِكَ بَيْنَ جَنْبَيْكَ لَا تَعْلَمُ عَنْ كُنْهَيْهَا وَحَقِيقَتِهَا، ﴿وَمَا
أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كَأَنَّهُ يُوَبِّخُهُمْ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، يَقُولُ: مَا بَقِيَ
عَلَيْكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ تَسْأَلُوا عَنِ الرُّوحِ! مَا أَكْثَرَ الْأُمُورَ الَّتِي تَخْفَى
عَلَيْكُمْ!

وَانْظُرْ إِلَى رَوْضَةِ نَزْلِ عَلَيْهَا الْمَطَرِ فَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ - زَوْجٍ
بِمَعْنَى صِنْفٍ - تَجْدُ هَذِهِ الْأَعْشَابَ مُخْتَلِفَةً فِي الْحَجْمِ، مُخْتَلِفَةً فِي اللَّوْنِ،
أَزْهَارَهَا تَسْرُّ النَّاضِرِينَ، مَنِ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْأَزْهَارَ وَجَعَلَ فِيهَا هَذِهِ
الْأَلْوَانَ؟ إِنَّهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -.

ثُمَّ فِي هَذِهِ النَّبَاتَاتِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَا يَعْرِفُهُ أَصْحَابُ
النَّبَاتِ.

إِذْنِ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ مِنْ حَيَوَانَ وَغَيْرِ الْحَيَوَانَ مِنْ حَيٍّ
وَمَيِّتٍ؛ لِأَنَّهُ عِلْمٌ عَلَى خَالِقِهِ.

فَأَنْتَ اسْتَحْضِرْ عِنْدَمَا تَقُولُ: ﴿رَبِّ الْفَلَمِیْنِ﴾ أَنَّهُ خَالِقُهُمْ،
مَالِكُهُمْ، مُدَبِّرُ أُمُورِهِمْ، الَّتِي يَرْجِعُونَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ.

وَيَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ الْفَارِقَ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ - بَفَتْحِ اللَّامِ - وَالْعَالَمَيْنِ
- بِكَسْرِ اللَّامِ - الْعَالَمَيْنِ قُلْنَا: كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ، وَالْعَالَمَيْنِ هُمُ ذَوُو الْعِلْمِ

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنني أصف الله بأكمل الأوصاف؛ لأنه رب العالمين جل وعلا، لا رب سواه، ولا معبود غيره، ولا ملجأ عند الضرورة إلا إليه، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا سِوَى اللَّهِ وَكِلَإِلَيْهِ وَخَابَ وَخَسِرَ، وهذا خبر بمعنى التحدث عن صفات الله الكاملة، وليس خبرًا بمعنى الأمر أي: احمّدوا الله، بدليل قوله تعالى في الحديث القدسي: «حَمْدِي عَبْدِي»^(١)، فقوله: «حَمْدِي» خبرٌ وليس إنشاءً، إِذَا: الجملة خبريةٌ محضةٌ.

فإن قيل: لماذا قُدِّمَ وصفُ الله بالألوهية على وَصْفِهِ بالربوبية؟
فالجواب: إما لأن «الله» هو الاسم العَلَمُ الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء، وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.



(١) تقدم تخرجه (ص: ٢٥).

قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

هذا ثناء؛ لأنه تكرر لوصف الكمال، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ صفة للفظ الجلالة، وهو ما يسمى عند النحويين بالنعته، ﴿الرَّحِيمُ﴾ صفة أخرى.

و﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي لا يدركها العقل، الشاملة لكل شيء كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَسُولِهِ الَّذِي الْأُنْجَى الَّذِي يُؤْمِنُ بِإِلَهِهِ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وهذه الرحمة العامة تشمل كل شيء، حتى الكافر قد رحمه الله بما أنعم عليه من الدنيا، ولولا نعمة الله على الكافر في الدنيا لهلك، فهو يعيش برحمة الله، لولا أن الله يرحمه ما أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً، ولا وجد غذاءً، ولا شراباً، ولا كسوةً، ولا سكناً، لكنه يعيش برحمة الله في هذه الأشياء إلا أنها رحمة لا تفيده في الآخرة؛ لأنها رحمة قاصرة في الدنيا فقط.

وهذه رحمة من وجه، ونقمة من وجه؛ لأن أي شيء يتنفع به الكافر من نعم الله فإنه ضرر عليه، وخسارة، وإثم عليه يوم القيامة، يعني: إذا أكل لقمةً يأثم بها يوم القيامة، إذا لبس ثوباً يقيه البرد يأثم به يوم القيامة، قال الله - عز وجل -: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣]، مفهوم المخالفة: وغير الذين آمنوا عليهم

جناح فيما طعموا، حتى المؤمنون - أيضًا - قد يكون عليهم جناح؛ لأن الله اشترط حتى في المؤمنين: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]، وفي آية أخرى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والذين لم يؤمنوا ليست لهم، فهي حرام عليهم في الدنيا، وهي استدراج من الله تعالى لهم، لكن يتمتعون بها، فهي عذاب ونقمة، وليست خالصةً يوم القيامة.

كيف تكفر بالذي خلقك وأمدك وأعدك؟! لو أن أحدًا من البشر أحسن إليك بدرهم واحد لملك منك بقدر ما أعطاك من الدراهم، إذا كان الرب - عز وجل - هو الذي منَّ عليك بالإيجاد: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ أَتَشْتَرُونَ نَفْسَهُمْ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]، هو الذي أمدك لمصالحك، الطفل يوضع من بطن أمه، وتضعه على فخذيها، ويلتقم الثدي، من الذي ذلَّه؟ الله - عز وجل -: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، هو الذي أمدك بالنعم: ﴿أَمَذْكُرُ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ أَمَذْكُرُ بِأَنعَمِ وَبَيْنَ وَحَنَّتِ وَعُيُونِ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤]، كيف تكفر به؟! ولهذا كان الكافر مستحقًا لأن يُعاقب على كل نعمة يتنعم بها من نعم الله - عز وجل -.

أما في الآخرة فلا حظَّ له من رحمة الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ

فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧]، إِذَا الَّذِينَ اسودت وجوههم ليسوا في رحمة الله، بل في عدل الله - عز وجل -، لم يعذبهم إلا بذنوبهم.

و﴿الرَّحِيمِ﴾ هو ذو الرحمة الخاصة التي تصل إلى مَنْ شاء من عبادِه، فيرحم من يستحق الرحمة، قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وهذا لا يكون إلا للمؤمنين لقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولهذا قال بعض العلماء: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عامة، و﴿الرَّحِيمِ﴾ خاصة.

ف﴿الرَّحْمَنُ﴾ وصفه، و﴿الرَّحِيمِ﴾ فعله، ولهذا جاءت ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على وزن «فَعْلَان» الذي يدل على السَّعة والامتلاء كما يقال لمن انتفخت أوداجه واحمرت عيناه وانفعل: غضبان، يعني: ممتلئ غضبًا، وجاءت ﴿الرَّحِيمِ﴾ على وزن «فَعِيل» الدال على صدور الفعل.

ولو أنه جيء بـ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وحده، أو بـ﴿الرَّحِيمِ﴾ وحده لشمل الوصف والفعل، لكن إذا اقترنا فُسِّرَ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالوصف، و﴿الرَّحِيمِ﴾ بالفعل.

ففي الآية إثبات هذين الاسمين الكريمين ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾ لله - عز وجل -، وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

وربوبية الله - عز وجل - مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة إليهم؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿رَبِّ الْفَلَكَيْنِ﴾ كأن سائلًا يسأل: ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ وانتقام، أو ربوبية رحمة وإنعام؟

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ففي الإتيان بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله: ﴿يَبْ أَلَسْلَمِيتَ﴾ دليل على أن هذه الربوبية ليست ربوبية انتقام أو غضب، بل هي ربوبية رحمة، يعني أنه - عز وجل - مع كونه ربًّا للعالمين جميعًا ربوبيته مبنية على الرحمة؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه كما قال تعالى في الحديث القدسي: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»^(١)، والدليل على أن رحمة الله سبقت غضبه قول الله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابْكٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

وكل ما صدر من الله - عز وجل - فإنه رحمة، حتى النقم التي تصيب الناس هي في الحقيقة رحمة، المرض رحمة لكن لا يعرف أنه رحمة إلا من تدبر وتأمل، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فالمرض يلحق المؤمن يُكْفِّرُ الله به سيئاته، قال النبي ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا أَدَى إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ»^(٢)، وهذه رحمة؛ لأن ما يصيبك في الدنيا زائل ولا يبقى، فدوام الحال من المحال، ويذكر عن بعض العابدات أنها أُصِيبَتْ في إصبعها، وأنها لم تتأثر، وقالت: «حَلَاوَةٌ أَجْرُهَا أَنْسَتْنِي مَرَارَةَ صَبْرِهَا»، وهذه كلمة عظيمة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (٧٤٢٢)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله (٢٧٥١).

(٢) أخرجه بمعناه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤٢)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه (٢٥٧٣).

ثم إن المرض قد يكون سبباً لاهتداء العاصي ورجوعه إلى ربه إذا كان فارقاً من الله، ولقد حُدِّثت عن شخص كان مسرفاً على نفسه فاسقاً بعيداً من الله، فمات أبوه، وبمجرد أن أصيب بهذه المصيبة عاد إلى الله واستقام، وصار من خيار الشباب، فانظر إلى هذه المصيبة كيف أصلحت هذا الشاب.

وانتقام الله تعالى من المجرمين والظالمين رحمة؛ لأن المجرم يعتدي على غيره، فإذا انتقم الله منه فهذه رحمة لمن اعتدي عليه أن كفاهم الله تعالى شره وانتقم منه، وهي أيضاً رحمة به، إن كان كافراً فثلاً يزداد إثمه وكفره، وإن كان عاصياً فثلاً تزداد معاصيه. فالانتقام من المجرم رحمة به، ولمن تعدى إجرامه إليه.

إذن: نقول: كل ما في الكون وما يقدره الله في الكون فهو ناتج عن الرحمة، وقرينة ذلك أن الله لما قال: ﴿رَبِّ أَعْلَمَ بِتَابِعَاتِ الْعَبْدِ﴾ قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، فليست ربوبيته مبنية على جبروت، وعلى إحراج، وعلى إفسار على العباد، ولكنها مبنية على الرحمة.

يقول بعض الناس: الرحمة إرادة الإحسان، أو: الإحسان إلى الخلق، ولكن هذا ليس بصحيح، ليست الرحمة إرادة الإحسان، ولا الإحسان إلى الخلق؛ لأن إرادة الإحسان من آثار الرحمة؛ لأن الرحيم يريد الإحسان، والإحسان إلى الخلق نفسه من آثار الإرادة، ولكننا نقول: الرحمة صفة اتصف الله بها - عز وجل - وهي حقيقة، لكنها رحمة تليق به كسائر صفاته؛ سمعه، وبصره، وقوته، وعزته - تبارك وتعالى -.

والذي فَسَّرَ الرحمة بالإحسان أو بإرادة الإحسان هم الأشاعرة، ومنعوا أن يوصف الله بالرحمة؛ لأن الرحمة تقتضي الرقة واللين، والرب - عز وجل - مُنَزَّهٌ عن ذلك، الرب قويٌّ عزيزٌ قادرٌ قاهرٌ، كيف يكون رحيمًا؟! ولهذا تقول: رحمتُ فلانًا، يعني: رقتُ له، والله - عز وجل - لا يمكن أن يوصف بالرحمة.

وأيضًا الإرادة لها دليل عقلي، والرحمة ليس لها دليل عقلي، ونحن لا نثبت من صفات الله إلا ما دل عليه العقل، ويقولون هم، أما نحن فنثبت كل ما أثبتته لنفسه، لذلك قالوا: المراد بالرحمة الإحسان الذي هو الشيء المنفصل عن الله، أو: أنه إرادة الإحسان؛ لأنهم يثبتون الإرادة، دليل الإرادة العقلي حتى ننظر هل الرحمة يدل عليها العقل أو لا، قالوا: دليل الإرادة العقلي التخصيص، يعني: كون الله - عز وجل - يجعل السماء سماءً، والأرض أرضاً، والإنسان إنساناً، والبعير بعيراً، والحمار حماراً، هذا يدل على الإرادة: أنه أراد أن تكون السماء سماءً فكانت، أراد أن يكون الإنسان إنساناً فكان، فهذا التخصيص، يعني: كون المخلوقات بعضها كذا وبعضها كذا يدل على إرادة الخالق، وهذا صحيح، ونحن نوافق على أن تخصيص بعض المخلوقات بخصائصه يدل على الإرادة.

نقول أيضًا: الإحسان إلى الخلق يدل على الرحمة؛ لأنه لا يحسن إلى غيره من ليس فيه رحمة، ودلالة الإحسان إلى الخلق على الرحمة أظهر وأوضح وأبين من دلالة التخصيص على الإرادة؛ لأن دلالة التخصيص

على الإرادة لا يفهمها إلا طالب علم، ودلالة الإحسان على الرحمة كل إنسان يفهمها، لو خرجت مثلاً بعد المطر وقابلك عامي، فقلت له: من أين هذا المطر؟ قال: هذا من رحمة الله، العامي الذي لا يفهم يستدل بنعم الله على رحمة الله، فالرحمة قد دل عليها العقل، ودلالته عليها أقوى من دلالة التخصيص على الإرادة، لكن قالوا: كيف يكون هذا والرحمة هي الرقة واللين والله مُنَزَّه عن هذا؟!

نقول: الرحمة التي تقتضي الرقة واللين أمام الشيء إنما هي رحمة البشر، أما رحمة الخالق فلا تستلزم ذلك ولا تقتضيه، على أننا نمنع قولكم: إن الرحمة تقتضي اللين؛ لأننا نجد مثلاً مَلِكًا من الملوك قوي السلطان والنفوذ ذا قدرة وله هبة، ومع ذلك إذا رأى الضعيف رَقًّا له ورحمه، ويعد هذا في حقه كمالاً، فهل نقول: إن هذا دليل على ضعف للملك؟! أبدًا، بل دليل على كماله وحكمته، وأنه ينزل كل شيء منزلته.

المهم: هذا بحث يستفيد منه طالب العلم، وهو أن كل من نفى صفةً من صفات الله بحجة عقلية، فإن هذه الحجة تكون دليلاً عليه وليست له؛ لأنه إما أن يقر بالجميع، وإما أن ينكر الجميع، أما أن يقر بالبعض وينكر البعض فهذا من باب التناقض.



قال الله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

﴿مَلِكِ﴾ صفة لـ ﴿لِلَّهِ﴾، و﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، سُمِّيَ يوم الدين؛ لأنه الذي يُدَانُ فيه العباد، أي: يُجَازَوْنَ على أعمالهم، يوم ﴿تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ أَلَيْمٌ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، ف﴿الدِّينِ﴾ هنا بمعنى الجزاء، يعني أنه - سبحانه وتعالى - مالك لذلك اليوم الذي يجازى فيه الخلائق، فلا مالك غيره في ذلك اليوم.

و﴿الدِّينِ﴾ تارةً يراد به الجزاء على الأعمال، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿[الانفطار: ١٧-١٨]، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]. وتارةً أخرى يراد به العمل كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وفي قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والعبارة المشهورة في هذا الأمر: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ» أي: كما تعمل تُجَازَى.

وفي قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قراءتان سَبْعِيَّتَانِ صحيحتان عن الرسول ﷺ بالنقل المتواتر: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، والثانية: ﴿مَالِكِ

يَوْمَ الدِّينِ ﴿١﴾، ويجوز أن أقرأ بهما؛ لأنها ثابتان عن النبي ﷺ، وأيهما أولى أن نقول: ﴿مَالِكٍ﴾، أو أن نقول: ﴿مَلِكٍ﴾؟

قال بعض العلماء: الأولى أن نقرأ ﴿مَالِكٍ﴾ بالألف من أجل أن نكسب زيادة عشر حسنات من الألف؛ لأن كل حرف في القرآن فيه عشر حسنات^(١)، فاقراً ﴿مَالِكٍ﴾، ولا تقرأ: ﴿مَلِكٍ﴾؛ لأنك إذا قرأت ﴿مالك﴾ كسبت زيادة عشر حسنات.

لكن القول الصحيح أن نقرأ أحياناً ﴿مَلِكٍ﴾، وأحياناً ﴿مَالِكٍ﴾ وأن هذا أفضل من اقتصارك على ﴿مَالِكٍ﴾، أو على ﴿مَلِكٍ﴾؛ لأن ﴿مَلِكٍ﴾ صَحَّحَ عن النبي ﷺ بالنقل المتواتر كما صح عنه ﴿مَالِكٍ﴾، وتام الاقتداء بالرسول - عليه الصلاة والسلام - أن تقرأ كما قرأ.

إذن: ينبغي لمن يعلم القراءتين أن يقرأ بهذه مرة وبهذه مرة في الصلاة وخارج الصلاة، وهذا أفضل من اقتصارك على إحدى القراءتين لأمر:

الأول: لتحقيق لك متابعة الرسول ﷺ؛ لأن القراءتين كليهما صححت عن النبي ﷺ، واختلاف القراءات كاختلاف السنن، فمثلاً: استفتاح الصلاة فيه أنواع، تفعل هذا أحياناً، وهذا أحياناً.

الثاني: حفظ القراءتين لأجل ألا تنسى القراءات الثابتة؛ لأنك إذا كنت تقرأ بهذا مرة وبهذا مرة ظللت حافظاً للقراءات كلها، ولهذا ينبغي

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن (٢٩١٠).

طلبة العلم أن يحفظوا القراءات من أجل أن يقرؤوا بهذه تارةً وبهذه تارةً أخرى؛ حفظاً للقراءات الواردة عن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - من جهة، ومن أجل أن تزداد علومهم في القرآن من جهة أخرى، لكن لا يجمعون بين القراءتين، بل يقرؤون مرةً بهذه، ومرةً بتلك.

ويشترط في جواز القراءة بالقراءتين إذا صحَّحًا شرط مهم، وهو أن يكون متأكدًا من ثبوت القراءة، فاحذر أن تقرأ بقراءة لم تتيقنهما، لو أن واحدًا قرأ الآية على غير الموجود في المصحف، وقال: أظن أن فيها قراءة، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا كلام الله، ولا بد أن تتيقن أن القراءة واردة على هذا الوجه، وإلا وجب عليك الترك لئلا تقول على الله ما لا تعلم.

وأقول لإخواني طلبة العلم: لا ينبغي أن تقرؤوا عند العامة بقراءة مخالفة للمصاحف التي بين أيديهم؛ لأن ذلك يحدث فتنةً.

أولاً: إن العامة لا شك أن في قلوبهم من تعظيم كتاب الله - عز وجل - ما لا يمكن وصفه، فإذا رأوا أن هذا القرآن يتغير فإن هذا يحصل به فتنة، فإن ذلك قد يقلل هبة القرآن في نفس العامي.

ثانياً: قد ينكر العامي بقلبه أو بلسانه على هذا الذي قرأ بقراءة لا يعرفها، فيكون سبباً للطعن في هذا القارئ، لو قرأت عند العامي وأنت إمامه: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يمكن أن يدفعك، ويقول: اذهب، لا أصلي معك؛ لأن العامي لا يعرف إلا ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ولهذا ينبغي لطلبة العلم ألا يقرؤوا بالقراءات الخارجة عن المصحف الذي بين الناس لما ذكرنا.

و﴿مَالِكٍ﴾ اسم فاعل، و﴿مَلِكٍ﴾ صفة مُشَبَّهة، ويقال في الأول: ملك، ويقال في الثاني: مُلْك، يعني المُلْك للمَلِك، والمَلِك للمالك، فتقول مثلاً: هذه الساعة ملك فلان، وتقول في مملكة تحت مُلك: هذه المملكة ملك فلان.

و«المَلِك» أخص من «المالك»؛ لأن الملك هو ذو السلطة المطلقة، ولا يسمى مَلِكًا إلا مَنْ تحته رعية، أما مالك فهو ليس له سلطة مطلقة، ثم هو لا يحتاج إلى أن يكون تحته رعية، ولهذا تجد الفقير الصعلوك يملك بقرته أو شاته.

لكن في الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة، وهي أن مُلْكَه جل وعلا مُلْكٌ حَقِيقِيٌّ تامٌّ من كل وجه؛ لأن من الخلق مَنْ يكون مَلِكًا ولكن ليس بهالك، فيسمى ملكًا اسمًا، كما نسمع في العصور السابقة أن بعض الملوك يكون ملكًا لا يتصرف وليس له من التدبير شيء وأن الذي يتصرف هم وزراؤه وحاشيته، وفي الوقت الحاضر نرى أن ملكة بريطانيا - مثلاً - ملكة لكنها ليست مالكة، فلا تدبر شيئًا، بل هي مسلوبة الملكية.

ومن الناس مَنْ يكون مالكا، ولا يكون مَلِكًا كعامة الناس، ولكنَّ الربَّ - عز وجل - مَالِكٌ مَلِكٌ، وإذا اجتمع مُلْكٌ وَحُكْمٌ - يعني أن يكون مالكا ملكا - تَمَّ الأمر.

فإذا جمعتَ بينهما استفدتَ من القراءتين فائدةً لا تحصل بانفراد إحداهما، وهي أنه صار في الآية دليل على ثبوت الملكية والتصرف، الملكية والسلطان من ﴿مَلِكٌ﴾، والتصرف من ﴿مَالِكٌ﴾، ومعلوم أن الملكية والسلطان أعلى من مجرد التصرف.

ولهذا أنا مثلاً أستطيع أن أتصرف في قلبي: أهديه، أبيعه، أُعيره، لكنني لست بمَلِكٍ، لو كنت مَلِكًا صارت الجنود والشرط عندي.

ففي الآية إثبات مُلْكِ الله - عز وجل -، ومَلَكُوتِهِ يوم الدين؛ لأنه في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات والملوك، فملوك الدنيا مهما عظم ملكهم واتسع وقوي سلطانهم، فإنه يتلاشى ويزول حين الموت، فحين يموت السلطان سواءً أكان باسم السلطان أو باسم الملك أو باسم الرئيس، فإنه يزول بمجرد موته، وما يفعل من بعده من تعظيم قبره أو زرع الأزهار عليه أو ما أشبه ذلك، فإنه لا ينفعه ولا ينتفع به إطلاقاً؛ لأنه مات وزال مُلْكُهُ.

فإن قال قائل: لماذا خص الملك بيوم الدين مع أن الله مالك للعالم والآخر؟

فالجواب: لأن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه يكون في ذلك اليوم أكثر من ظهوره في هذه الدنيا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأن الله تعالى ينادي: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيب أحد، فيجيب نفسه، فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فلا ملك لأحد من البشر في ذلك اليوم،

حتى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وهم أفضل الخلق - دعاؤهم في ذلك اليوم: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١)، ليس في الآخرة ملك سوى الله، أما في الدنيا فيظهر ملوك يتسلطون على البشر بما يريدون، بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ لأن فطرتهم منحرفة ليس عندهم إلا الرئيس الفلاني والرئيس الفلاني، فالشيوعيون مثلاً لا يرون أن هناك رباً للسماوات والأرض، ويرون أن الحياة أرحام تدفع، وأرض تبلع، وأن ربهم هو رئيسهم.

فالله - عز وجل - هو المتصرف في ذلك اليوم، لا أحد يتصرف في ذلك اليوم أبداً، لو كان أحد يستطيع أن يتصرف لأوجد له ظلاً من حر الشمس، ولكن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(٢)، فهو الذي يخلق - عز وجل - ظلاً في ذلك الوقت على مَنْ استحقه كالسبعة الذين يظلمهم الله في ظله، وقد جاء في الحديث: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صِدْقَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

كذلك هو مَلِكُ يوم الدين لا مُلْكُ لأحد معه كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فيجيب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٣) ورد هذا اللفظ في حلية الأولياء (١٨١/٨)، وأخرجه الإمام أحمد (١٤٧/٤)، ولم يذكر: «يوم القيامة».

وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجزاء على الأعمال، وأن الذي يجازي على الأعمال هو الله - عز وجل - .
فيستفاد من هذا حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

فهذه ثلاث آيات كلها لله - عز وجل - .



﴿إِيَّاكَ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾﴾

﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير مفعول به مقدم، وعامله: ﴿نَعْبُدُ﴾، وكان منفصلاً لتعذر الوصل حيثئذ.

ورتبة المفعول به بعد عامله، أي: أن حق المعمول التأخير عن العامل، وكلما قدم ما حقه التأخير كان ذلك دليلاً على التخصيص والحصر والقصر، وهو إثبات الحكم في المحصور فيه، ونفيه عما سواه، هكذا في اللغة العربية كما نص على ذلك أهل البلاغة وأهل النحو.

فيكون قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على وزن قولنا: لا إله إلا الله من حيثُ المعنى، فلا إله إلا الله فيها حَصْرٌ للألوهية بالله، وهو أنه هو الإله وحده، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها حصر العباداة في الله، وأنه وحده هو المعبود، يعني: لا نعبد إلا إياك، فهي بمعنى لا إله إلا الله.

قد يقول قائل: الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في العباداة، و«لا إله إلا الله» في الألوهية؟

فنقول: الألوهية هي العباداة، لكنها في حق الله تسمى «ألوهية»، وفي حق العبد تسمى «عبادة» أو «عبودية»، ولهذا يقول العلماء تارة: «توحيد الألوهية» وتارة أخرى: «توحيد العباداة»، فهو باعتبار الله (المعبود) ألوهية، وباعتبار العبد (العابد) عبادة.

والعبادة تطلق على معنيين:

المعنى الأول: المتعبّد به (مفعول العبد الذي يتقرب به الإنسان إلى الله)، ومن ثمّ قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ^(١): «الْعِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ»، فالطهارة عبادة، والصلاة عبادة، والصدقة عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والنذر عبادة، والتوكل وهو التفويض المطلق عبادة إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي ذكرها أهل العلم، ففسرها - رحمه الله - هنا بالمفعول؛ لأن الصلاة مفعول.

أو نقول: العبادة اسم جامع لكل ما أمر الله به للتعقّب إليه، وكلمة: «للتقرب إليه»؛ لأن الله قد يأمرنا بشيء لا للتقرب إليه، ولكن لمصلحتنا الخاصة، مثل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وما أشبه ذلك، الأصل في هذه الأوامر الإباحة، لكن مع ذلك ربما ينقلب الأكل والشرب عبادةً، يمكنك أن تجعل الأكل والشرب عبادةً:

أولاً: عندما تأكل وأنت تريد امتثال أمر الله يكون عبادةً.

ثانياً: عندما تأكل لتحفظ نفسك من الضرر يكون عبادةً؛ لأن الله - عز وجل - يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ولو أن الإنسان لم يأكل لمات جوعاً.

ثالثاً: عندما تأكل للتنعم بنعمة الله عليك يكون عبادة؛ لأن الله إذا أنعم على عبده نعمةً يحب أن يرى أثر نعمته عليه^(١)، ولأن الكريم إذا أكلت مكرمةً - أو تكرمته - يحب ذلك، لو أن كريماً من الناس قدم لك طعاماً فإنه يحب أن تأكله، لو أن بخيلاً من الناس قدّم لك خبزاً يمكن أن يقول: ليت كل اثنين يأكلان واحدةً فقط؛ لكي يرجع ببقية الخبز، فالكريم يحب من الناس أن يتنعموا بكرمه، فأنت الآن عندما تأكل تحب أن تتنعم بكرم الله - عز وجل -، وهذا لا شك أنه يقربك إلى الله - جل وعلا -.

رابعاً: إذا نويت بأكلك الاستعانة على طاعة الله يكون عبادةً، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «تَسَحَّرُوا، فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(٢).

والمعنى الثاني: التعبد الذي هو فعل العابد، فمثلاً: إذا قام الإنسان يصلي لله فقيامه نسيمه فعلاً، ونفس الصلاة مفعولة، وعلى هذا فالعبادة هي تذلل الإنسان لله - عز وجل -، والخضوع له بفعل أو امره، واجتناب نواهيه محبةً وتعظيماً.

فبالمحبة يكون فعل الأوامر، فالرجل إذا أحب شيئاً سعى إليه، إذا أحبيت أن تزور - مثلاً - المدينة فإنك تبحث عن سيارة توصلك.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء أن الله يحب أن يرى أثر نعمته (٢٨١٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب (١٩٢٣)، ومسلم في كتاب الصوم، باب فضل السحور (١٠٩٥).

وبالتعظيم يكون ترك النواهي، فإذا قال لك شخص عظيم عندك: لا تفعل هذا الشيء فهل تتجاسر على أن تفعله وهو عندك عظيم؟! أبداً، ولهذا يكون التعظيم حاملاً للإنسان على ترك المحرمات، وكذلك بالمحبة قد يترك الإنسان ما يُنهي عنه من أجل محبته للناهي حتى لا يخالفه فيما نهى عنه.

فبالمحبة يكون فعل الأوامر، وبالتعظيم يكون ترك النواهي، هذا هو الأصل مع أن التعظيم قد يكون سبباً لفعل الأوامر أيضاً؛ لأنه إذا كان يعظمه يخشى إذا خالف أمره أن يعاقبه، لكن الأصل الأول: أن بالمحبة يكون فعل الأوامر، وبالتعظيم يكون ترك النواهي، ولكن كلاهما يجتمعان أحياناً.

إذن: الصلاة عبادة بمعنى المتعبد به، لكن إذا قام الإنسان يصلي أمامنا قلنا: إن صلاته (حركاته وأقواله وأفعاله) عبادة على معنى التعبد.

فقوله تعالى: ﴿تَبَدُّدٌ﴾ أي: نتذلل لك أكمل ذل؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلاً لله - عز وجل -، يسجد على التراب، تمتلئ جبهته من التراب، كل هذا ذلاً لله، ولو أن إنساناً قال: أنا أعطيك الدنيا كلها، واسجد لي ما وافق المؤمن أبداً؛ لأن هذا الذل لله - عز وجل - وحده.

والعبادة لا تصلح لغير الله - عز وجل -، لا لملكٍ مُقَرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ، إنما العبادة لله وحده لا شريك له، فمن عبد مع الله غيره فليس بمُخْلِصٍ، والله غنيٌّ عنه، وهو كافر، حتى لو عبد أفضل البشر والخلق

عند الله محمدًا رسولَ الله ﷺ لَكَانَ كَافِرًا، فكيف بمن يعبد غير الرسول - صلى الله عليه وسلم -؟!

لو أن رجلاً قرأ هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وإذا خرج من المسجد ذهب إلى قبر الوليِّ فركع له، وسجد له، ونذر له، وتقرَّب إليه، وذبح له لقلنا: إن هذا مشرك كافر، لا يقبل الله منه صِرْفًا ولا عَدْلًا؛ لأن العبادة لله - عز وجل - وهذا لم يصدق في قوله: إياك نعبد؛ لأنه أشرك بالله.

و«العبادة» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن مَنْ لم يكن كذلك فليس بعابد، لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابدًا حقًا، ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن عابدًا حقًا، العبدُ هو الذي يوافق المعبود في مُراد الشرعيِّ، فالمستكبرُ الذي لا يعبد الله ليس عابدًا، والذي يعبد الله ويعبد غيره ليس عابدًا، بل مُشركٌ.

لو أن رجلاً قرأ هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فخرج من المسجد فصار يأخذ المال بالربا والغش والخيانة، فهذا لم يَصْدُقْ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لأنه عَبْدَ الدَّرْهِمِ.

رجل قيل له: إن بيع الدرهم بالدرهمين ربا وحرام، فقال: أنا أحب جمع المال، وصار يبيع الدرهم بالدرهمين، فهذا عابد للدرهم، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْحَمِيلَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ»^(١)، فسمى المنهمك بتحصيل الدرهم والدينار عبدًا،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧).

وسمى المنهمك بالخميسة - أي: بالثوب - وبالخميلة - أي: بالفراش -
سماء عبداً.

إذن: فالمنهمك في هذه الأشياء التي يحصلها بالحلال والحرام لم
يصدق في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لكنه ليس كالذي يعبد الصنم، بل هذا
فيه نوع شرك، لكنه لا يُخْرِجُهُ من الملة.

ولهذا نقول: استحضر يا أخي المسلم إذا قرأت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أن
معنى قولك هذا: لا نعبد إلا إياك.

والإنسان العابد يشعر بأنه عبد لسيدته وإلهه، إذا أمره قال: سمعنا
وأطعنا.

ومن تمام العبودية الحب في الله، والبغض في الله؛ فإن هذا أوثق
عُرَى الإيمان: أن تحب الله، وتبغض الله، وتوالي الله، وتُعادي الله^(١)، فمن
كان من عباد الله الصالحين فهو حبيبك في أي مكان من الأرض، وفي
أي زمن من الأزمنة، حتى الذين آمنوا بموسى - عليه السلام - من بني
إسرائيل، والذين آمنوا بعميسى - عليه السلام - من بني إسرائيل هم
أحبابنا وإخواننا، يعني: لا تظن أن الحبيب والأخ هو من كان من هذه
الأمّة فحسب، بل كل من كان مسلماً في أي زمان وفي أي مكان فإنه أخ
لنا؛ لأن هذا مقتضى العبادة، (الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في
الله، والمعاداة في الله - عز وجل -).

من تمام العبادة أن الله إذا أمر بأمر أن تقول: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، بعض

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (٢١٧/١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٧١/١٠).

الناس إذا قلتَ له: أَمَرَ الله بكذا، أو: أَمَرَ الرسول بكذا قال: هل الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ سبحان الله! هل كان الصحابة يستفهمون مثل هذا الاستفهام؟! إذا أمرهم الله بشيء أو أمرهم رسوله ﷺ بشيء، هل يقولون: هل هو للاستحباب أم للوجوب؟ كلا، بل يقولون: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

نعم، إذا وقع الإنسان في المخالفة فحينئذ يتوجه هذا السؤال: أن يقول: هل هذا للوجوب، ويحتاج إلى فدية، أو كفارة، أو ما أشبه ذلك؟ إذا نهى الله ورسوله عن شيء يقول لك: هل النهي للكرهية أم للتحريم؟ سبحان الله! إذا نهى عن شيء نقول: سمعنا وأطعنا، ونتجنب.

ولهذا لا يستطيع أحد أن يأتي بحرف واحد عن الصحابة أنهم إذا أمرهم الرسول ﷺ بشيء قالوا: هل أنت تأمرنا على سبيل الوجوب، أم على سبيل الاستحباب؟ إذا نهاهم عن شيء قالوا: هل أنت تنهانا على سبيل التحريم أم على سبيل التنزيه؟ أبداً.

نعم، إذا حصل شيء يوجب الاستفهام استفهموا مثل قضية بَرِيرَةَ رضي الله عنها، فإنها لما أُعْتِقَتْ وكان زوجها رَقِيقًا، فَخَيَّرَهَا رسول الله ﷺ مِنْ زَوْجِهَا، فَقَالَتْ: لَوْ أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا مَا بَبْتُ عِنْدَهُ. فَأَخْتَارَتْ نَفْسَهَا، ففَسَخَت النكاح^(١)، وكان زوجها مُغِيثٌ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا،

(١) أخرجه البخاري في كتاب العتق، باب بيع الولاء وهبته (٢٥٣٦)، ومسلم في كتاب العتق، باب بيان أن الولاء لمن أعتق (١٥٠٤).

وهي تكرهه كراهةً شديدةً، فكان يمشي خلفها في أسواق المدينة يسألها أن ترجع، وأن تعدل عن رأيها، ولكنها تأبى، فطلب مُغِيثٌ من رسول الله ﷺ أن يشفع له، فشفع له لعله يرجع إليها، قالت: يا رسول الله، أَتَأْمُرُنِي فَسَمْعًا وِطَاعَةً، أَمْ أَمْرٌ تُشِيرُ بِهِ عَلَيَّ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ؟ قال: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ»، قالت: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ^(١).

وكذلك إذا دَلَّتِ القرينة على أن الأمر ليس للوجوب، مثل قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «بِعَنِي الْجَمَلُ، بِعَنِيهِ بِوَقِيَّةٍ»، فجعل يُمَّاكِسُهُ حتى اشتراه الرسول - عليه الصلاة والسلام -^(٢).

المهم: أن الأمر الشرعي لا يمكن للصحابة أن يقولوا: يا رسول الله، هل هو أمر استحباب، أم أمر وجوب؟ فَمِنْ تَمَامِ التَّعَبُّدِ أَنْكَ إِذَا سَمِعْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ أَنْكَ لَا تَتَرَدَّدُ، لَا تَقُلْ: هَلْ هُوَ لِلْوَجُوبِ، أَمْ لِلْإِسْتِحْبَابِ؟ بَلْ قُلْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَافْعَلْ، وَاسْتَوْجِرْ.

كذلك إذا سمعت النهي فلا تتردد، لا تقل: هل هو للتحريم فأجتنبه وجوبًا، أو للكرهية فأجتنبه تنزهًا؟ قل: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، لَكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: إِلَّا إِذَا وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي الْمَخَالَفَةِ، فَحِينَئِذٍ يَسْأَلُ: هَلْ هُوَ وَاجِبٌ، أَمْ مُحَرَّمٌ؟ لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج (٥٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة (٢٧١٨)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥) بعد حديث (١٥٩٩).

المهم: أن من تمام العبادة تمام الامثال بفعل الأوامر واجتناب النواهي. و«العبادة» تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه، ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي: نطلب العون من الله - عز وجل -، وهذه أيضًا فيها حصر، يعني: لا نستعين إلا إياك على العبادة، وعلى جميع الأمور، فهي بمعنى: عليك توكلنا.

والاستعانة: طلب العون، مثال: علقت سيارتك في الرمل، ورأيت اثنين أو ثلاثة أو أربعة يمشون، قلت لهم: تعالوا، ساعدوني عليها، هذه تسمى استعانة.

وطلب العون يكون من الله وَحْدَهُ، يعني أنك لا تطلب العون إلا من الله - سبحانه وتعالى -، وَمَنْ استعان بالله - عز وجل - كفاه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

فاستعين بالله، ولا تستعن بغيره، ولهذا أوصى النبي ﷺ ابن عمه وهو عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، فقال له: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (٢٩٣/١).

ينبغي لنا عندما نريد أن نفعل العبادة أن نشعر بأننا نستعين الله، وأنه لولا معونة الله ما قدرنا عليها حتى نجتمع في عبادتنا هذه بين العبادة والاستعانة، ويدل على هذا قول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «اٰخْرِضْ عَلٰى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللّٰهِ، وَلَا تَعْجِزْ»^(١)، احرص واستعن، لا تعتمد على الحرص فقط، ضُمَّ إلى الحرص الاستعانة بالله حتى تكون مُتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، واكِلاً الأَمْرِ إلى الله - سبحانه وتعالى -، فِيعَيْنِكَ.

كلما أردت أن تفعل عبادةً فاستحضر أنك مستعين بالله، فإذا أردت أن تتوضأ فاستحضر أنك مستعين بالله، ولولا إعانة الله وتيسير الماء حتى وصل إليك، وأن الله أعطاك قدرةً على استعماله ما توضأت.

وعندما تأتي إلى الصلاة فاستشعر أنك مستعين بالله - عز وجل - ومعتمد عليه ومتوكل عليه، واعتقد أن أكثر الناس لا يطرأ على بالهم أنهم مستعينون بالله، بل يأتي يصلي على العادة.

والله - سبحانه وتعالى - يجمع بين العبادة والاستعانة أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه، فجمع الله تعالى بينها من أجل ألا يعتمد الإنسان على نفسه، وَيَتَّكِلَ عَلَى نَفْسِهِ، حتى في العبادة استعين بالله لا تعتمد على نفسك؛ لأنك إن وُكِلَتْ إلى نفسك وُكِلَتْ إلى ضعف وعجز وعورة، ففي الجمع بين العبادة والاستعانة إشارة إلى أنه يجب على

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب الإيثار بالقدر والإذعان له (٢٦٦٤).

الإنسان أن يقرن جميع أعماله بالاستعانة بالله، وألا يعتمد على نفسه، ويتكل عليها حتى في العبادة، ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فكل شيء اجعله مربوطاً باستعانتك بربك - عز وجل -.

وتستفيد باستعانة الله فائدتين عظيمتين:

■ الأولى: التبعّد لله بالاستعانة.

■ والثانية: تيسير أمرك؛ لأن الله إذا أعانك تيسّر لك الأمر.

ألم تعلم أن سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - قال: «لَأُطَوِّقَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تَسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِقَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، فقيل له: قل: إن شاء الله، فما قال: إن شاء الله، فطاف على تسعين امرأة يجامعن، فلم تلد إلا واحدة شقّ إنسان^(١) (نصف إنسان) ليري الله - عز وجل - عباده أن الأمر أمره، وأنه إذا لم يُعِنِكَ خُذِلْتَ.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة لله، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] إثبات المعونة من غير الله - عز وجل -، وقال النبي ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَذُلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(٢)،

(١) رواه بمعناه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ (٣٤٢٤)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب الاستثناء (١٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب فضل من حل متاع صاحبه في السفر (٢٨٩١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩)، واللفظ لمسلم.

فأثبت الإعانة من المخلوق للمخلوق، وكذلك أخبر أن من حق المسلم على أخيه أن يعينه إذا ظلم على دفع الظلم عنه؟^(١)

فالجواب: المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استعانة العبادة التي فيها التفويض المطلق، وأنه لا قدرة للمستعين على أي شيء إلا بمعونة هذا الذي استعان به؛ لأن الاستعانة تقع على وجهين:

الوجه الأول: استعانة عبادة وتفويض، بمعنى أنك تعتمد على الله - عز وجل -، وتفوض أمرك إلى الله تفويضًا تامًا، وتعتقد أن ربك أعظم منك، وأعلى منك، وأنت عبد لله، والله ربك، وتعلم أنه لا قدرة لك على أي شيء إلا بمعونة الله، وأنه لا طاقة لك بهذا الشيء إلا بمعونة من استعنته، وتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، وهذا خاصٌّ بالله - عز وجل -، وهي استعانة العبادة.

الثاني: استعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به، فطلب العون من غير الله ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إذا كان المستعان به حيًّا قادرًا على الإعانة، والإنسان لا يرى أنه يفوض أمره إلى هذا المستعان به، ولكن يرى أنه من باب المساعدة، فهذا جائز.

مثل: أن تقول للرجل: أَعِنِّي على حَمْلِ مَتَاعِي على السيارة - مثلاً -
كذلك لو قلت لشخص: أَعِنِّي على إصلاح سيارتي. فهذا جائز

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٦٤).

ولا حرج فيه؛ لأنه ليس استعانة بعبادة، والمستعان هنا قادر على عونك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيرِ وَالْتَقَوْا﴾ [المائدة: ٢].

لكن الأولى ألا يستعين بأحد؛ لأن هذا من المسألة المذمومة، وهو ليس حراماً، لكن تركه أولى إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسرّ بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه، ولا يُعدُّ هذا من المسألة المذمومة كما فعل النبي ﷺ حين دخل بيته، ووجد البرمة على النار فيها اللحم، فلما قُدِّمَ له الطعام قال: «أَلَمْ أَرِ الْبُرْمَةَ فِيهَا لَحْمٌ؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، ولكن هذا لحم تُصَدِّقُ به على بَرِيرَةَ، فقال: «هو عليها صدقة، ولنا هدية»^(١)، وبَرِيرَةُ - رضي الله عنها - في هذه الحال سُسِّرَ به وتفرح.

وينبغي لمن طُلِبَ منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

القسم الثاني: إذا لم يكن قادراً أن يعين، ولكن يطلب منه العون على وجه خفي مثل: لو طلب من شخص أن يجعل حَمْلَ زوجته ذَكَراً فهذا شِرْكٌ؛ لأنه لا يقدر على التذكير والتأنيث للجنين إلا الخالق - عز وجل -، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ (١١) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا فَيَحْمِلُ مِنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، فقسم الله تعالى ذلك إلى أربعة أقسام:

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الحرة تحت العبد (٥٠٩٧)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إباحة الهدية للنبي ﷺ (١٠٧٥).

﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِشَا﴾ يعني مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُولَدُ لَهُ إِلَّا إِنَاثٌ، ﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُولَدُ لَهُ إِلَّا ذُكُورٌ، ﴿أَوْ يُرْجِئُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتِشَا﴾ معنى ﴿يُرْجِئُهُمْ﴾ يعني: يجعلهم أصنافاً؛ لأنَّ الزوج يُطْلَقُ عَلَى الصَّنَفِ، ومعنى ﴿ذُكْرَانًا وَإِنْتِشَا﴾ يعني يجعل بعضهم ذُكُورًا، وبعضهم إِنَاثًا، الرابع: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لَا يُولَدُ لَهُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ اللَّهِ - سبحانه وتعالى -.

كذلك لو استعان بصاحب قبر مثل هؤلاء الذين يطلبون العون من الأموات، فيقول للميت: يا سيدي فلان، أَعْنِي عَلَى كَذَا وَكَذَا، فهذا شرك أكبر؛ لِأَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِينِ الْحَيَّ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَعِينِ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ مَيِّتٌ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢٠-٢١]، فالميت لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَعَانَ بِهِ.

وَمَنْ اسْتَعَانَ بِمَيِّتٍ فَقَدْ ضَلَّ فِي دِينِهِ وَسَفِهَ فِي عَقْلِهِ، ضَلَّ فِي دِينِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْيَقِيمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥٠-٦]، سَفِهَ فِي عَقْلِهِ؛ لِأَنَّهُ كَيْفَ يَطْلُبُ الْعَوْنَ مِنَ الْمَيِّتِ وَهُوَ جَمَادٌ جَثَّةٌ هَامِدَةٌ؟! وَرَبَّمَا تَكُونُ الْأَرْضُ قَدْ أَكَلَتْهُ، فَكَيْفَ يَطْلُبُ مِنْهُ الْعَوْنَ؟! وَلَئِنْ الْمَيِّتَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْكَ الضَّرَرَ، وَلَا عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا، هَذَا سَفَهٌ، ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الولي الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده، فهذا - أيضًا - شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

إذن: استعانة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، واستعانة غير الله فيما يقدر عليه المستعان تنقسم إلى قسمين: قسم شرك، وقسم جائز، فإذا استعنت بحي قادر على معونتك فهذا جائز، وإذا استعنت بميت فهذا شرك.

وإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فاستحضر بقلبك معنى: لا إله إلا الله، المعنى: لا نعبد إلا أنت يا ربنا، وهذه الجملة حق لله، إذا قلت: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فاستحضر بقلبك أنك لا تستعين إلا الله - عز وجل - وحده، وهذه الجملة حق للآدمي، يطلب العون من الله، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ»^(١).

والخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لله - عز وجل - والآيات الثلاث الأولى الحديث فيها بلفظ الغائب، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليست: الحمد لك يا رب العالمين، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ غائب، ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ غائب غير مخاطب، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مخاطب، لم يقل: إياه نعبد، ففي الآية التفات.

والالتفات تغيير أسلوب الخطاب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]،

(١) تقدم تحريجه (ص ٢١).

لو كانت الآية بدون التفات لقال: وبعث منهم اثني عشر نقيباً، وهو هنا - في سورة الفاتحة - من الغيبة إلى الخطاب، والاتفات له فوائد:

الفائدة الأولى: تنبيه المخاطب، وهذا في كلِّ التِّفَاتِ، فكلُّ التفات فيه تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا جاء على نسق واحد ووتيرة واحدة انقطع معه الإنسان، ولم يحدث شيء يوجب التفكير، فإذا تغير الأسلوب أوجب ذلك أن يفكر الإنسان: كيف تغير الأسلوب؟ ما الذي غيَّره؟ كيف انتقلنا من الغيبة إلى الخطاب أو من الغيبة إلى المتكلم؟ فيتنبه.

الفائدة الثانية: أن في الالتفات فائدة يُعَيِّنُها السياق، وهذه الفائدة تختلف باختلاف السياقات، ففي سورة الفاتحة لَمَّا حَمِدَ الإنسان ربه وأثنى عليه ومجَّده صار كأنه حاضر عنده يخاطبه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٣ تِلْكَ يَوْمَ الدِّينِ ٤، قوة هذه الأوصاف جعلت المتكلم كأنه يخاطب الله - عز وجل -، فانتقل من الغيبة إلى الخطاب، قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولهذا نحن في التشهد نقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» مع أن النبي ﷺ ليس بحاضر، لكن قوة استحضاره جعلتنا كأننا نخاطبه مخاطبة الحاضر.

تنبيه: بعض العوام إذا قال الإمام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقولون: استعنا بالله. وهذا لم يَرِدْ، ما كان الصحابة - رضي الله عنهم - يقولون هذا خَلْفَ نبيهم ﷺ، فلا تقله، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أبلغ من: استعنا بالله من وجهين:

الوجه الأول: أن ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ فيها تقديم المعمول ﴿وَيَاكَ﴾، قال العلماء: وتقديم المعمول يدل على الحصر والاختصاص، كأنك قلت: لا نستعين إلا بإياك.

الوجه الثاني: كلمة: استعنا بالله فعل ماضٍ، لكن ﴿نَسْتَعِيْثُ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، والإنسان مستعين بالله دائماً وأبداً. فلهذا لا حاجة أن تقول: استعنا بالله. ولكن استمع لقراءة إمامك، ولا تتكلم بشيء، أنت مأمور بالإنصات كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - ^(١)، فإذا قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقل: آمين.



(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة (٤٠٤).

قال الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

هذه الجملة للإنسان، وقوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا ﴾، الهداية لها معنيان: المعنى الأول: الدلالة والإرشاد، وضده الجهل؛ لأنه إذا لم يرشدك الله ولم يَدِلْكْ فأنت جاهل.

والمعنى الثاني: التوفيق، وضده الغي والمخالفة.

لأن من الناس من عنده علم، لكن لم يوفق ولم يعمل، ومن الناس من عنده جهل، يحب الخير لكن لا يعلمه.

فالناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: عالمون عاملون، وجُهَّال، وطُغَاة، يعني أنهم عالمون غير عاملين.

فأنت تسأل الله الهداية في الأمرين: في الدلالة والإرشاد، يعني العلم، وفي التوفيق، يعني التزام الصراط المستقيم، ومعلوم أن الإنسان لا يستطيع أن يلتزم الصراط المستقيم إلا بعلم، كيف يعبد الله على جهل؟ لا يمكن، لا بد أن يهديه الله: يدلّه أولاً، ثم يوفقه ثانياً.

فأنت بقولك: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ تسأل الله تعالى علماً نافعاً تهتدي به، وعملاً صالحاً ترشد به، والعلم لا يكون مفيداً إلا إذا كان مقروناً بالعمل، أما إذا كان غير مقرون بالعمل فإنه ليس مفيداً، بل ضَرَرُهُ أكبرُ من نَفْعِهِ، والجهلُ خير من عِلْمٍ لا ينفع.

ومن ثَمَّ يمكن أن نقول: إن الناس ينقسمون إلى أربعة أقسام:

الأول: جاهل من عامة الناس لا يعلم شيئاً، حاله تقول: سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته.

الثاني: عالم ملة: وعالم الملة هو الذي علِم الحق واتبعه، وصار لا يجيد عنه طرفة عين.

الثالث: عالم أمة: وعالم الأمة هو الذي أعطاه الله علماً، لكنه لا يتبع فيه ما قام عليه الدليل، وإنما يتبع فيه ما يروق للأمة، يعني: ينظر ما يناسب للناس فيفتيهم به، إذا رأى أن الشرع يدل على أن هذا الشيء حرام، ولكن لا يروق للناس؛ قال: هذا حلال؛ إرضاء لهم.

ومن هذا ما يفعله بعض الناس في الأمور الخلافية التي تختلف فيها العلماء، فيكون فيها أحد القولين أوسع من القول الثاني فيما يخص العمل، لكنه أبعد عن الصواب فيما يخص الشرع، فتجد عالم الأمة يُفتي الناس بالقول المرجوح إرضاء للأمة؛ لأن هذا هو القول المناسب للناس، وهذا يجري في كثير من الأمور الخلافية، في البيوع مثلاً كبعض مسائل الربا، وكذلك في مسائل النكاح والنذر وما أشبه ذلك، فتجد بعض العلماء يكون عالم أمة ينظر إلى ما يروق للناس فيفتيهم ولو على حساب ما يرى أنه هو الراجح، وهذا - والعياذ بالله - عليه إثم عظيم كما جاء به الحديث «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل قضي بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاضٍ لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاضٍ قضي بالحق فذلك في الجنة»^(١).

(١) روى معناه الترمذي في كتاب الأحكام، باب ما جاء عن الرسول ﷺ في القاضي (١٣٢٢).

الرابع: عالم دولة: وعالم الدولة هو الذي ينظر إلى ما يَرُوقُ للدولة ويصلحُ لها، فيفتيها به ولو كان يرى أن الحق في خلافه، وهذا يقع كثيراً من بعض العلماء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة - والعياذ بالله - وصاروا يتكلمون حَسَبَ ما تُثْلِيه عليه دولتهم سواءً بحقٍّ أو بباطل.

وما أَكْثَرَ علماء الدولة! حتى إننا سمعنا من بعض مَنْ يَتَزَعَّمُونَ العالم الإسلامي من يقول: إن بعض طُرُقِ الاشتراكية^(١) هي مِنَ الدين الإسلامي، ويستدلون على ذلك بآيات متشابهات، كل ذلك إرضاءً للدولة.

وهذا الذي يكون عالم دولة سوف يجد حسابه عند الله - عز وجل - حينما ينادي المنادي، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، سيجد هذا حين يتبرأ منه مَنْ اتبع هواه من أجله، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَتَرْجِلُنَّهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

هذه الآية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ المراد: دُلَّنَا عليه بالعلم، ووفقنا له، فيكون هذا الدعاء متضمناً سؤال العلم والعمل، ليس مقصوداً به العلم فقط، بل العلم والعمل، ولهذا جاءت متعديّة بنفسها إلى المفعول، لا بحرف «إلى» الدال على الغاية، فيشمل الهداية إلى الطريق، وهذا بالعلم، والهداية في الطريق، وهذا بالعمل والتوفيق.

(١) انظر: (بطلان الاشتراكية) لفضيلة شيخنا المؤلف رحمه الله تعالى.

فكلمة «هَدَى» تتعدى بنفسها، وتتعدى بـ«إلى»:

إن تعدَّتْ بنفسها صارت بمعنى الدلالة والتوفيق جميعاً، فتقول: هَدَى الله فلاناً يعني: دلَّه على الحق، ووفَّقه له، ومنه قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، ما قال: إلى سُبُل، وإنما قال: سُبُل.

وإذا تعدت بـ«إلى» فهي بمعنى الدلالة، فهديته إلى كذا يعني دلتُّه عليه فقط، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣]، ومنه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] يعني: لتدل إلى صراط مستقيم.

ومن بلاغة القرآن أن حذف حرف الجر من: ﴿أَهْدِنَا﴾، والفائدة من ذلك لأجل أن تتضمن طلب الهداية بالمعنيين جميعاً: هداية العلم والدلالة، وهداية التوفيق والعمل؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هداية علم وإرشاد: فليس فيها إلا مجرد الدلالة، قال الله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ هديناهم هداية دلالة، دَلَّهم الله على الحق، وبيَّن لهم رسولهم الحق، ولكنهم لم يوفقوا فاستحبوا العمى على الهدى، وقال الله - عز وجل -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، يخاطب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، المراد بالهداية هنا هداية الدلالة والإرشاد والبيان.

وتكون من الله، فالله - عز وجل - قد هَدَى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى

لِلنَّكَاسِ ﴿البقرة: ١٨٥﴾.

وقد تكون هذه الهداية من غير الله، فالرسول ﷺ يدل الناس على الخير، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، بل إِنَّ غير الرسول ﷺ يدل الناس على الخير، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والقسم الثاني: هداية توفيق وعمل: ففيها التوفيق للهدى واتباع الشريعة والسير على الصراط المستقيم، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ كَتَبَ لَإِبْرَاهِيمَ فِيهِ هُدًى لِلشَّقِيقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦]، يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ، يعني: لا تستطيع يا محمد أن توفق شخصاً ضالاً فيهدي؛ لأن ذلك إلى الله، وهذه بيد الله، لا أحد يستطيع أن يوفق شخصاً للهداية، وإنما ذلك إلى الله وَحْدَهُ.

وهذه الهداية قد يُحَرِّمُهَا بعض الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم الحق، ودللناهم عليه، ولكنهم لم يوفقوا، بل استحبوا العمى على الهدى.

مثال: رجل عليم أن صلاة الجماعة واجبة، ولكنه لا يصلي مع الجماعة، فهذا هُدي إلى الحق، ولكنه لم يُهْدَ الحق؛ لأنه لم يوفق للعمل به. قال الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا﴾، ذكرها بلفظ الجمع والسائل واحد، وكان المتوقع أن يقال: «أهْدِنِي»، فلماذا جاءت في سورة الفاتحة كلمة:

﴿ أَهْدِنَا ﴾، وأنت قد تصلي منفردًا فتدعو وحدك وتقول: ﴿ أَهْدِنَا ﴾؟

قال أهل العلم: لأن المقام يقتضي ذلك، فإن من كان يدعو الله - عز وجل - فإنه في مقام عالٍ ومنزلة رفيعة؛ لأن الدعاء عبادة، ولكن قد يقال هذا ينتقض بأن الرسول ﷺ كان يستفتح صلاة الليل بقوله: «اللَّهُمَّ، رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١)، ولم يقل: اهْدنا وهو دعاء.

ولكن الظاهر - والله أعلم - أنه لما علم الله - سبحانه وتعالى - أن هذه السورة سيقروها من يكون إمامًا للناس صارت بلفظ: ﴿ أَهْدِنَا ﴾ ليكون الدعاء للإمام القارئ وَلِمَنْ خَلَفَهُ، ولو كان الإمام يقول: اهْدني الصراط المستقيم لكان يدعو لنفسه، ولا يليق أن يدعو لنفسه، ثم يقول الناس وراءه: «أَمِينَ»، فَيُؤْمِنُونَ على دعاء لا ينتفع به إلا الداعي، هذا ما ظهر، والله أعلم.

والضمير في قوله: ﴿ أَهْدِنَا ﴾ يعود على جميع الأمة الإسلامية، ولا يمكن أن تكون الأمة الإسلامية رفيعة المقام عزيزة المال إلا إذا تمت الهداية لها جميعًا، لحكامها ومحكميها، فإن انتفت الهداية في أحد منهم اختل من العِزَّة والكرامة بقدر ما اختلَّ من الهداية، ولهذا ينبغي لنا أن نستشعر ونحن نقول: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أننا ندعو لأنفسنا وللأمة جميعًا.

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ (٧٧٠).

قوله: ﴿الصِّرَاطَ﴾ فيه قراءتان: بالسين ﴿السِّرَاطُ﴾، وبالصاد الخالصة: ﴿الصِّرَاطَ﴾.

وقوله: ﴿الصِّرَاطَ﴾ يقول أهل اللغة: إن الصراط لا يطلق على الطريق إلا إذا كان واسعاً، أما الطريق الضيق فليس بصراط، ووجه ذلك في المعنى أن الصراط والزُّراط والسِّرَاط كلها تدل على سعة وسهولة نفوذ، يقال: زَرَطَ الرجل اللقمة، يعني: ابتلعها بسرعة وسهولة، هنا الصراط يعني الطريق الواسع الذي يمضي به الإنسان من غير تعب ولا مشقة.

لكن الصراط قد يكون مائلاً، وقد يكون فيه مرتفعات ومنخفضات، فلهذا قال: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: استقام حساً ومعنى، ليس فيه اعوجاج، ولا ينحرف يمينا ولا شمالاً، وليس فيه منخفض ولا مرتفع؛ لأن الطريق المعوج يعوق ويطول، فمثلاً إذا كان بينك وبين البلدة في الخط المستقيم عشرون كيلو متراً، يكون بينك وبينها في الخط المعوج ثلاثون كيلو متراً أو أكثر حسب كثرة الاعوجاج، كذلك في المنخفضات والمرتفعات: إذا كان الطريق سَوِيًّا، فإنك تصل إلى ما تريد بسرعة، لكن إذا كان مرة في الأعلى ومرة في الأسفل زاد عليك الطريق.

وهناك صراط معوج، كل ما خرج عن دين الله فهو صراط معوج، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فكل ما خرج بك عن سبيل الله فهو من غير الصراط المستقيم، وما كان موافقاً للحق فهو مستقيم.

فالمستقيم إذاً هو المعتدل الذي ليس فيه انحراف يميناً ولا شمالاً، هو أيضاً المستوي الذي ليس فيه نزول ولا طلوع، فخرج به المعوج وما فيه انخفاض وارتفاع.

والمراد بالصراط المستقيم هنا الصراط المستقيم المعنوي، وليس الحسي، أما في قول موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿قَالَ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَا سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] فالمراد به الحسي، ولهذا هداه الله - عز وجل - إلى سواء السبيل، لكن هنا الصراط المعنوي.

والمعاني التي قيلت فيه كلها ترجع إلى الإسلام، يعني: اهدنا إلى الإسلام؛ لأن الإسلام هو الصراط المستقيم الذي يوصل إلى الله؛ لأن الله تعالى وضع هذا الشرع ليوصل إليه كالطريق الذي يفتح ويُمهّد ليوصل إلى غايته في المكان.

ووصف بأنه مستقيم؛ لأنه عدل ليس فيه انحراف، وليس فيه طلوع ولا نزول؛ والدين الإسلامي، مبنيٌّ على اليسر والسهولة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ولو تَدَبَّرَتِ الشريعة الإسلامية لوجدتها مستقيمةً صالحةً لكل زمان ومكان، أما سوى الإسلام فهو ينحرف يميناً وشمالاً.

لو جاءنا رجل، وقال: إذا كنتم تقولون: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فزماننا هذا لا يصلح إلا أن تخرج المرأة متبرجة حتى تشابه بنات جنسها، كيف تحجبها والنساء يميناً وشمالاً متبرجات كاشفات الوجوه؟!

وجاء رجل آخر، وقال: الاقتصاد الدولي الآن لا يستقيم إلا بالربا؛ لأن مسألة البيع (بيع السلع، والعقارات، والسيارات، وما أشبه ذلك) مُتَعَب، لكن الربا خذ مئة، وبعد سنة تعطيه مئة وعشرين، هذا سهل، ولا يستقيم الاقتصاد إلا بالربا، وإذا كان لا يستقيم إلا بالربا وأنت تقول: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان فالربا من الإسلام؛ لأنك تقول: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

وجاء ثالث فقال: الأديان كلها أفيون الشعوب، تُقَيِّد الحريات، تقول للرجل الذي يريد أن يشرب الخمر: لا تشرب الخمر، وللذي يريد أن يزني: لا تزني، وللذي يريد أن يسرق: لا تسرق، وإذا كان الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان نقول: من يريد الزَّنا يَزني، ومن يريد السرقة يسرق، ومن يريد شرب الخمر يشرب الخمر؛ لأن هذا الزمن لا يصلح إلا بهذا، وأنت من قاعدتك أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

فما هو الجواب عن هذه الإشكالات؟ لأن بعض الناس فسَّر هذه العبارة على أن المعنى: خاضع لكل زمان ومكان، يعني: نُغَيِّرُهُ حَسَبَ عادة الناس، نغيره حسب الزمان، فالتخذ من هذه العبارة أن جعل الإسلام بمنزلة العجينة، كُلُّ يُقَرَّصُهُ على وَفْق ما يريد، هذا يضع قرص خبز كبير، وهذا قرص خبز صغير، وهذا مدور، وهذا مربع، وجعله بمنزلة العَجِين.

كما أن بعض الناس اتخذ من قول الرسول ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ

دُنْيَاكُمْ»^(١) أن مسائل المعاملات لا دخل للشرع فيها، يحكم فيها العادة؛ لأنه قال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»، يعني: وأنا لست أعلم منها شيئاً، وهذه العبارات يتخذ منها مَنْ في قلبه زَيْغٌ غَرَضًا يَصِلُ به إلى هواه، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧].

نحن نقول في الرد على الأول: إن المرأة إذا خرجت كاشفةً الوجهَ وقلت: إن هذا من الصلاح.

نقول: إنك كاذب، هذا ليس من الصلاح، بل هذا من الفساد، والواقع شاهد بذلك، انظر إلى الشعوب ماذا وصلت إليه لما قيل للمرأة: اخرجي كاشفةً الوجهَ:

أولاً: هل اقتصرت المرأة على كشف الوجه؟ لا، كُشِفَ الوجهُ والرأسُ والرقبةُ والنَّحْرُ والساق والذراع والعَضُد، هذا فسادٌ، كيف نقول: صالح؟! هذا ليس بصالح، هذا فساد.

وثانياً: هل اقتصرت المرأة لما قيل: اكشفي وجهك على أن أخرجتِ الوجه على طبيعته؟ لا، عملت المكياج، يعني: سَوَّدَت العين، وَحَمَرَت الشَّفَاه، ومكيجت الخدود، وخرجت، ولم تقتصر على طبيعتها، وهذا شيء لا نقوله عن تَحَرُّصٍ، بل نقوله عن أمر واقع، والمرأة - كما تعلمون - ضعيفةٌ، ترغب أن تخرج متجملةً متمكجةً، فتخرج وتكون فتنةً لنفسها ولغيرها، كيف تقول: إن التبرج صالح للزمان هذا؟! التبرج ليس صالحاً للزمان، بل هو فساد للزمان.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً (٢٣٦٣).

والذي قال: الربا صالح للزمان؛ لأن به قِوَامُ الاقتصاد، نقول: من قال هذا؟! قال: هذا لأنني أقسم الربا إلى قسمين: قسم استثماري، وقسم استغلالي استهلاكي، فالمحرم القسم الاستغلالي الاستهلاكي، أما القسم الاستثماري فإنه جائز؛ لأن فيه مصلحة وفائدة، والإسلام صالح لكل زمان ومكان، وهذا صلاح.

نقول: هذا ليس بصحيح، هذا كذب، أما الربا الاستغلالي الذي يُراد منه استغلال الفقير فظاهر أنه ظلم، يجيء للفقير ليس عنده ثوب، ليس عنده دابة يركبها، ليس عنده سيارة يسير عليها، وهو محتاج مضطر، يقول له التاجر: أنا سأعطيك ألف ريال، لكن إن كانت حاجتك شديدة وأنت شديد الفقر يكون الألف ألفين، وإن كنت متوسط الحال ألفاً وخمسة مئة، وإن كنت حول الغنى فالألف ألفاً ومئتين، لما اشتدت حاجته وعظم فقره زادت الضريبة عليه؛ لأن التاجر لا يريد من هذا الربا أن يرحم الخلق، بل يريد أن يستعبدهم ويستغلهم، وهذا حرام؛ لأنه ظلم.

أما إذا كان الربا استثمارياً يقصد به تنمية المال فهذا لا بأس، فنقول: متى يكون هذا استثمارياً؟ إنه لا يمكن أن يوجد في الربا زيادة لشخص إلا وهي نقص في جانب الشخص الآخر، هذا لا بد منه، كل زيادة يقابلها نقص، كما نقول: واحد زائد واحد يساوي اثنين، أمر واضح، حتى وإن كان استثمارياً؛ لأنك سوف تستثمر على حساب الآخرين، فهذا ظلم.

ثم من قال لك: إن الربا لا يكون إلا ظلمًا، قد يكون الربا غير ظلم، ويدل على هذا أن النبي ﷺ جيء إليه بتمر جيد، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَكُلْ تَمْرَ خَيْرَ هَكَذَا؟»، قالوا: لا يا رسول الله، لكننا نأخذ الصاع من هذا بالصاعين - تكون المئة مئتين - والصاعين بالثلاثة - تكون المئة مئة وخمسين - فقال النبي ﷺ: «أَوْهْ أَوْهْ! عَيْنُ الرَّبَا عَيْنُ الرَّبَا، لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرِ بِبَيْعِ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِهِ»^(١)، مع أن هذا الربا ليس فيه ظلم؛ لأن الصاع الطيب يساوي في القيمة صاعين من الرديء، والتراضي بين الطرفين حاصل، فالبائع غير مظلوم، والمشتري غير مظلوم، ومع ذلك قال النبي ﷺ: «هذا عين الربا»، ردوه، بطلوا البيع، وبهذا تبين أن الربا بنوعيه (الاستثماري، والاستغلالي) حرام، وأن هذا التقسيم إن كان صاحبه يعتقد أنه عقل فهو عقل فاسد؛ لأن كل شيء يخالف النص فهو فاسد لا يقبل.

الثالث صاحب الحريات يريد أن يبيع الزنا والخمر والسرقة، ويدع الناس أحرارًا؛ لأن الحرية - من حيث هي - صلاح، لكنها حرية كاذبة خادعة تكون على حساب رِقِّ الآخرين فليست صالحة، نقول: أنت الآن زعمت أن الزنا صلاح؛ لأنه حرية، لكنه حرية لك، رِقٌّ لغيرك: فساد للأنسَاب، اختلاط في المياه، تشويه للسمعة، يخرج الشعب كل واحد لا يدري من أبوه؛ لأن المياه اختلطت، فيه أيضًا

(١) أخرجه بمعناه البخاري في كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر (٢٢٠٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل (١٥٩٣).

مرض جديد خطير بسبب الزنا، أرسله الله عقوبةً رجزاً من السماء، وهو مرض الإيدز.

قال: أسرق عشرين ألف ريال، وأذهب وأشتري سيارة، وأؤثث البيت، هذا خير؛ لأنه حرية، نقول: لكن على حساب الآخرين، هذا المسروق منه ربما ليس عنده إلا الذي سرقته، أصبح هذا المسروق منه فقيراً معدماً، وأصبحت أنت غنياً بغير حق من أكل المال بالباطل، فأين الحرية؟! ليس هناك حرية، إنما هي حرية خادعة باطلة على حساب رق الآخرين.

جاء الذي يشرب الخمر، اشترى خمرًا أو صنعه، ويريد أن يشربه، فقال: دعوني أكون حرًا أشرب الخمر، نقول له: أنت زعمتها حرية وهي رق لك أنت قبل كل أحد؛ لأن شارب الخمر يصبح مجنوناً أو شبه مجنون، يتكلم بكلام غير معقول، صح في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كان له ناضحان - أي: بعيران - يسقي عليهما، فمر الناضحان بحمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - وكان قد شرب الخمر قبل أن يحرم الخمر؛ لأن الخمر حرم متأخراً، وكان عند حمزة قينة (أمة) تُغني له، فغنت له حتى انفعل، فقام على الناضحين فجبَّ أسنمتهما، كل واحدة جبَّ سنَامَها، فذهب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى الرسول ﷺ يُخبره، فجاء النبي ﷺ إلى حمزة - رضي الله عنه - وحمزة عم للرسول ﷺ - فلما أقبل عليه وكلمه النبي ﷺ قال حمزة للنبي ﷺ لما قال: «كَيْفَ تُجِبُّ سِنَامَ بَعِيرِي عَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؟» قال: هَلْ أَنْتُمْ

إِلَّا عَيْدُ أَبِي؟ انظر هذا الكلام، فكان من حِكْمَةِ النبي ﷺ أَنْ رَجَعَ الْقَهْقَرَى، وَتَرَكَه حَتَّى يَضْحُو^(١).

وذكر بعض الوُعَاظُ أَنْ شارب خمر جعل يبول ويتوضأ ببوله، نعوذ بالله كيف يسعى في جنون مَنْ عقل ولا أدري: هل هذه الحادثة صحيحة؟ لكن على كل حال يمكن أَنْ تَقَعَ؛ لِأَنَّ السُّكْرَ يُوْدِي إِلَى الْجُنُونِ - نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - هَذَا رِقٌّ، انحبس عقلك الآن، وصرت مأسورًا ليس عندك حرية، فأين الحرية؟!

يأتي الصنف الرابع المُلْحَد المَارِق من الإسلام، ومن الأديان كلها، يقول: الأديان أفيون الشعوب، تؤخر الشعوب، نقول: كذبت، بل الدين الحق وهو الإسلام عَزَّ الشُّعُوبَ، ولهذا كانت الأمة الإسلامية وهي متمسكة بدينها أعزُّ دول العالم، ملكوا كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وكسرى وقيصر في ذلك الوقت كالروس والأمريكان في وقتنا هذا، أعظم دولتين ملكها الصحابة - رضي الله عنهم - في سنوات قليلة، فكيف يقال: إنه أفيون الشعوب؟! لكن ضعف الشخصية في الواقع عند المنتسبين للإسلام هي الأفيون في الحقيقة، إن الشعوب الإسلامية الآن - مع الأسف - عندها ضعف شخصية، وعندها تبعية للكفار، لا ترى في نفسها القوة، ولا الانتصار الذي وعدها الله؛ لِأَنَّ الْعُدَّةَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا النَّصْرُ مَفْقُودَةٌ عِنْدَ غَالِبِ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَكِنْ نَحْنُ نَقُولُ:

(١) أخرجه بمعناه مسلم في كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر (١٩٧٩)، وكذا البخاري في كتاب المساقاة، باب بيع الحطب والكلأ (٢٣٧٥).

إن الشعوب الإسلامية اليوم فيها - والله الحمد - صحوة ويقظة، تَبَيَّنَ لكثير من شبابها أن التبعية للكفار مهزلة ومَذَلَّةٌ، وأنه يجب أن نكون أمةً إسلاميةً قويةً تدين بدين الله - عز وجل - لِتَقْهَرَ أعداءَ الله؛ لأن الله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ لأي شيء؟ ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، يعني: يجعله فوق كل شيء، ولا يظهر الإسلام إلا بظهور أهله، ولا يظهر أهل الإسلام إلا بإظهارهم الإسلام، وافتخارهم به، واعتزازهم به، وألا يجعلوا أنفسهم أذناناً للغير.

إذن: تَبَيَّنَ - والحمد لله - أن الدين الإسلامي فيه كمال الحرية، لكنها حرية مُتَرَنِّة، تُقَيِّدُ التَّزَوَّات، وتقيد الانطلاقات الزائفة، وتجعل من الشعوب شعباً معتدلاً متوازناً.

وبقي عندنا شُبْهَةٌ أُخْرَى أَشْرَتْ إِلَيْهَا، وهي قول الرسول ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»^(١)، هذا الحديث استدل به كثير من المتأخرين على تحليل كثير من المحرّمات في باب المعاملات، وقال: إن الرسول ﷺ قال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ».

نقول: ما سبب الحديث حتى نعرف: ما المراد به؟

سبب الحديث أن الرسول ﷺ لما قَدِمَ المدينة وجد الناس يصعدون إلى فحول النخل، ويأخذون ثمرها، ثم ينزلون منها، ثم يصعدون إلى

(١) تقدم تخرجه (ص ٧٥).

إناث النخل، وَيُلْقَحُونَهَا بِشْمَرِ الْفَحُولِ، وهذا فيه تَعَبٌ، وفيه إضاعة وقت، وفيه خطر، فقد يسقط الإنسان من الفحل أو من النخلة، فلما رأى الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذلك قال: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ»، فتركه الناس، وصاروا لَا يُلْقَحُونَ، ففسدت الثمار تلك السَّنَةَ، فالذي أفسدها عدم التأبير (مَا لُقِّحَتْ)، وعادة إذا لم تلقح النخل أصبحت شَيْصًا فاسدًا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، فجاؤوا إلى الرسول ﷺ وأخبروه، قال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»، ما قال: بأحكام دنياكم، أحكام الدنيا والدين لله - عز وجل -، لكن ما يكون بالتجارب هذا إلى الإنسان، قد يدرك بالتجارب ما لَا يدركه الآخر.

لو طَلَبْتَ مِنِّي - مثلاً - أَنْ أَصْنَعَ كَرْسِيًّا مَا عَرَفْتُ، وَأَنْتَ لَوْ طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تَصْنَعَ مَسْجَلًا مَا عَرَفْتُ، وَلَكِنْ يَوْجَدُ مَنْ يَصْنَعُ كَرْسِيًّا، وَيَصْنَعُ مَسْجَلًا، وَهُوَ دُونَكَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّقْوَى؛ لِأَنَّهُ تَعَوَّدَ بِالْمَهِارَةِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ الرَّسُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: أَنْ مَسَائِلَ الصَّنَاعَةِ وَالْحِرْفَةِ تَرْجِعَ إِلَيْكُمْ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهَا، كُلُّ مَنْ كَانَ مُحْتَرفًا فِي شَيْءٍ فَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ.

أما الأحكام فهي إلى الشرع، الشرع يقول: هذا حرام فهو حرام، يقول: هذا حلال فهو حلال، لكن الصناعة حرفة تعود إلى الصانع، ولهذا فإن النجار يعرف كيف يَنْجُرُّ، لكنَّ الحَدَادَ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْجُرُّ، والنجار لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَحْدُّ، والحَدَادُ يَعْرِفُ، كُلُّ إِنْسَانٍ وَصَنَعَتِهِ.

إذن: هذا الحديث الذي تَشَبَّثَ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ الْمَعَاصِرِينَ الْيَوْمَ

وقال: إنه إذا كنا أعلم بأمور ديننا فنحن نرى أن الاقتصاد لا يقوم إلا بالربا، وحينئذ يكون عندنا علم غير علم الشرع، فالربا حلال، نقول: هذا ليس بصحيح، لسنا أعلم بالأحكام من رسول الله ﷺ، لكن في الصنائع والحرف التي لم يمارسها الرسول - عليه الصلاة والسلام - يكون الناس أعلم منه بها، ولهذا كان الذين يُلَقَّحُونَ أعلم من الرسول ﷺ في التلقيح، فالأمر - والحمد لله - واضح، وشرعية الله لا تتغير، ولا تتبدل أبداً.

استدل بعض الناس ببعض التصرفات من الخلفاء، قالوا: إن بعض الخلفاء غيّر الحكم الشرعي لمصلحة رآها، قلنا: هات، قال: عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جعل الطلاق الثلاث ثلاثاً، وكان الطلاق الثلاث في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر - رضي الله عنه - وستين من خلافة عمر - رضي الله عنه - طلاق الثلاث واحدة، يعني: لو قال الإنسان لزوجته: أنت طالق ثلاثاً لا يقع إلا واحدة، فلما كثر ذلك في زمن عمر - رضي الله عنه - ألزم الناس بما ألزموا به أنفسهم، وجعل الثلاث ثلاثاً^(١)، قال: هذا تغيير اقتضته الحال، فإذا اقتضت الحال أن نحلل الربا حللناه.

وقال أيضاً: إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما كثر شرب الخمر استشار الصحابة، وقال: ما رأيكم؟ لأن شرب الخمر ليس فيه حدّ عن الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ فإنه كان يؤتى بالشارب في

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث (١٤٧٢).

عهد النبي ﷺ، فيقوم الناس إليه يضربونه، بعضهم يضرب باليد، وبعضهم يضرب بطرف الثوب، وبعضهم يضرب بالنعل، وبعضهم يضرب بالجريد بدون حد معين^(١)، ولهذا قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: إن النبي ﷺ لم يَسْنَهُ^(٢)، يعني عُقوبة شاربِ الخمر.

استشار عمر - رضي الله عنه - الصحابة - رضي الله عنهم -: ماذا نَصْنَعُ؟ في عقوبة شرب الخمر؟ فقال عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -: أَخَفَّ الحدود ثمانون، فجعل عمر - رضي الله عنه - عقوبة شارب الخمر ثمانين^(٣)، أخف الحدود الذي هو ثمانون القذف، فإن حد القذف ثمانون جلدة.

فنقول في الجواب عن هذا: إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لم يغير الحكم الشرعي، ولكنه زاد في العقوبة لا في مسألة الطلاق الذي ألزمهم به، ولا في مسألة زيادة عقوبة شارب الخمر، والزيادة في العقوبة تقتضيها المصلحة، أنت الآن لو قلت: لما انهمك الناس في الربا سأشدد عليهم التحريم قلنا: هذا صحيح، أما أن تقول لما انهمك الناس في الربا: سأحلل لهم الربا فهذا غير صحيح، وإلا لكانت الشريعة ألعوبة، كل جيل يتخذ شريعة خاصة له.

وجاء قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال (٦٧٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال (٦٧٧٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب حد الخمر (١٧٠٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب حد الخمر (١٧٠٦).

نَسْتَعِيبُ ﴿؛ لأن العبادة إذا لم تكن في إطار الصراط المستقيم صارت بدعة لا تُقْبَل عند الله؛ لأن من شرط العبادة المتابعة لرسول الله ﷺ، وهذه لا تتحقق إلا باتباع الصراط المستقيم.

كذلك الاستعانة، تستعين بالله لكن في إطار الصراط المستقيم، وبه نعرف أن أولئك القوم الذين يكون لديهم غيرة شديدة وعاطفة قوية تخرج بهم عن الحدود الشرعية لم يأتوا بالاستعانة على الوجه المطلوب؛ لأن الاستعانة لا بد أن تكون على وفق الصراط المستقيم، أما أن تعصف بنفسك بمقتضى عاطفتك بدون أن تقيدها بالشرع وبالعقل فبقى أن هذه العاطفة سوف تكون عاصفة، فكل عاطفة لا تُقَيَّد بالشرع أو بالعقل فستكون عاصفة، وسيحدث فيها فوضى كبيرة وخلل عظيم، ويكون ضررها أكبر بكثير من نفعها.

ولهذا على الإخوة الذين لديهم عاطفة وغيرة على دين الله - وأسأل الله أن يجعلنا جميعاً كذلك - أن يُقَيِّدُوا هذه العاطفة بما تقتضيه الشريعة ويقتضيه العقل حتى لا تكون هذه العاطفة عاصفة.

إذن: فائدة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بعد ذكر العبادة والاستعانة من أجل أن يُعلم أن العبادة والاستعانة لا تكون مفيدة حتى تكون مربوطاً بالصراط المستقيم وهو شرع الله - عز وجل -.

وفي هذه الآية لجوء الإنسان إلى الله - عز وجل - بعد استعانته على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة:

▪ من إخلاص، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

■ ومن استعانة يُتَقَوَّى بها على العبادة، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

■ ومن اتِّباع للشرعية، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنَّ ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الشريعة التي جاءت بها الرُّسُلُ، وفيها يُخَصُّصُنا هي الشريعة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فصارت هذه الجُمْلُ الثلاث متضمنةً للدين كُلِّه: الأول: عبادة، والثاني: استعانة، والثالث: اتباع.



قال الله تعالى: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

يَبَيِّنُ هذا الصراط بقوله: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقوله تعالى: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني: الصراط الذي سلكه الذين أنعمت عليهم.

وهذا - أي: ذكر التفصيل بعد الإجمال، المجلمل قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والمفصل: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ - فيه فائدة، فإن النفس إذا جاء المجلمل تَرَقَّبَ وَتَشَوَّفَ للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيلُ وَرَدَ على نفس مستعدةً لِقَبُولِهِ متشوقةً إليه، ثم فيه فائدة ثانية هنا، وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم هم الذين على الصراط المستقيم.

والخطاب لله - عز وجل؛ لأنه من حد قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بدأت بمخاطبة الله.

وقد انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام^(١)، وقد جاء الآن تبيانها: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: أنعمت عليهم النعمة التامة التي يكون فيها نعمة الدين والدنيا.

والذين أنعم الله عليهم هم مَن عَلِمُوا الْحَقَّ وَعَمِلُوا بِهِ، وهم أربعة

(١) انظر (ص: ٦٩).

أصناف: النبيون، والصّديقون، والشهداء، والصالحون، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

والقرآن يُفسّر بعضه بعضًا، فإذا سألك سائل: مَنْ الذين أنعم الله عليهم؟ فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ﴾.

وهم على مراتبهم هذه:

الأول: قال: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، ويدخل في النبيين هنا الرسل من باب أولى؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، ومعلوم أن الأعم يدخل فيه الأخص، والرسل أعلى طبقة من الأنبياء، وأولو العزم أعلى طبقة من غيرهم، ومحمد ﷺ أعلى ذوي العزم طبقة.

النبي: من أوحى إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه.

والرسول: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

ولهذا كان آدم - عليه الصلاة والسلام - نبياً، وليس برسول؛ لأن أول الرسل هو نوح - عليه الصلاة والسلام -.

هل أنت تستحضر وأنت تقرأ هذه الآية هؤلاء السادة؟ لا بد أن يكون في قلبك ذكر هؤلاء السادة.

الطبقة الثانية: الصّديقون: هم الذين قالوا الصدق، وصدقوا به، وبلغوا في الصدق غايته مع الله، ومع عباد الله.

بلغوا في الصدق غايته في تصديق ما أنزل الله على رسله، وقاموا بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣].

وعلى رأس هؤلاء الصديقين أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - صاحب رسول الله ﷺ في الغار، فإنه أفضل الصديقين؛ لأنه هناك حواريون وأنصار للرسول السابقين، فعرفنا أن أبا بكر - رضي الله عنه - هو أفضلهم؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأفضل هذه الأمة هو أبو بكر - رضي الله عنه - باتفاق الصحابة، فقد كان الصحابة يقولون على عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام -: خير هذه الأمة أبو بكر ثم عمر - رضي الله عنهما - وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يُعلن على منبر الكوفة بعد أن كان خليفةً ويقول: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر^(١)، وبذلك نعرف كذب الرافضة الذين ادَّعَوْا أن أبا بكر - رضي الله عنه - ليس خليفةً، وأنه ظالم لعلي - رضي الله عنه - ؛ لأن علياً - رضي الله عنه - عندهم هو الخليفة.

فيقال: لماذا لم يُعلن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حين كان خليفةً أنه مظلوم؟ بل أعلن أن ما جرى هو العدل؛ لأنه أقرَّ واعترف بأن خير هذه الأمة أبو بكر - رضي الله عنه - وهذا إقرار بفضلله وبأحقيته للخلافة؛ لأنه لا يُؤلَّى على القوم إلا أفضلهم وخيرهم.

والصديقُ درجةٌ عظيمةٌ تلي درجة النبوة؛ لأنها تدل على كمال

(١) انظر حلية الأولياء (٧/ ٢٠٠).

الصدق في عبادة الله وفي معاملة عباد الله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(١)، فمن قال الصَّدَقَ وَصَدَّقَ بِهِ فهو صَدِيقٌ، ومن قال الكذبَ أو كَذَبَ بالصدق فليس بالصَّدِيقِ.

الثالث: الشهداء: ذكر العلماء فيهم رأيين:

الرأي الأول: أنهم العلماء.

والرأي الثاني: أنهم شهداء المعركة، وهم الذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

فالعالم شهيد حتى لو مات على فراشه، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فجعل الله تعالى أولي العلم شهداء؛ لأنهم يشهدون من وجهين:

- يشهدون للرسول بالبلاغ.
- ويشهدون على الأمة بأن الدعوة بَلَّغَتْهُمْ، مَنْ يَدْرِي أَنَّ الرِّسُولَ بَلَّغَ إِلَّا الْعُلَمَاءُ؟ ومن الذي يشهد على الأمة أنها بُلِّغَتْ إِلَّا الْعُلَمَاءُ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق (٢٦٠٧).

فلهذا كانوا شهداء.

لكنهم لو ماتوا على فُرُشِهِمْ لا يُعْطَوْنَ حُكْمَ الشهيد بحيث لا يُغْسَلُونَ ولا يُصَلَّى عليهم، لكنهم شهداء على عِبَادِ اللَّهِ في شرع الله - عز وجل -.

والعلماء أعظم شهادة من غيرهم، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، الملائكة وأولو العلم شهدوا بوحدانية الله، وكلما كان الإنسان أعلم كانت شهادته بتوحيد الله أقوم وأؤكد وأعظم، ولهذا يشهد العلماء من آيات الله وتوحيده ما لا يشهده غيرهم.

لكن أولو العلم الذين يكونون من الشهداء هم أولو العلم الذين يطلبون العلم لله، والذين إذا بانَ لهم حقُّ تبعُوه، والذين لا يخرجون عن طريقة النبي ﷺ وأصحابه، ليس العالم القارئ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا كَثُرَ قُرَاؤُكُمْ، وَقَلَّ فُقُهَآؤُكُمْ؟»^(١)، يعني: لو وجدنا شخصاً بَخْرًا في العلم: إن جتته في التفسير فإذا هو بحر، وفي الحديث بحر، وفي الفقه بحر، وفي كل فن هو فيه بحر، لكنه لا يعمل بعِلْمِهِ، ولا يتبع طريق السَّلَفِ فهذا ليس من أولي العلم، يقول الله - عز وجل - في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ لأنه فصاحة وبيان، وهم في مظهر يعجبك، لكنهم لا خير فيهم ﴿كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسَدَّةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

(١) أخرجه بمعناه عبد الرزاق (١١/٣٥٩).

ومن ثَمَّ يتسلط الشيطان على طالب العلم بإلقاء الوسوس في قلبه، حتى إنه يأتي بوسوس يُحِبُّ الإنسان أن يَحْتَرِقَ ولا يتكلم بها، يجب أن يسقط من السماء ويتمزق قبل أن يَصِلَ إلى الأرض ولا يتكلم بها، وسوسٌ عظيمة خطيرة يُلقِيها الشيطان في قلب الإنسان إذا رأى منه إقبالاً على العلم؛ لأن العلم يُوصِلُ إلى اليقين، والشيطان يُريد منا أن نَشْكَّ، وأن نَنَحْلَعَ من الدين.

لكن هذه الوسوس لا تؤثر على الإنسان، بل هي صريح إيمانه كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما أخبروه بذلك: «أَوْقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١)؛ لأن هذه الوسوس إنما يلقِيها الشيطان على قلب صريح الإيمان، يعني خالص الإيمان؛ لأن القلب الدَّامِرَ الذي عنده شكوك يكون الشيطان معه مستريحاً، ما يأتي إليه يوسوس لأنه خراب، ولهذا قيل لعبد الله بن عباس أو ابن مسعود - رضي الله عنهم -: إن اليهود يقولون: إننا لا نوسوس في صلاتنا - يعني لا يأتي الشيطان فنُفَكِّرُ - قال: «نَعَمْ صَحِيحٌ، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِقَلْبِ خَرَابٍ؟!»، الشيطان يأتي للقلبِ العامِرِ حتى يَدْمَرَهُ.

ولكن ما دواء هذه الوسوس؟

دواؤها أمران:

قال النبي ﷺ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَّهِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان (١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٦)، ومسلم في

الأول: يستعِذ بالله، يعني يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، لكن يقولها بقلب صادق مُفْتَقِر إلى الله - عز وجل -، لا يقولها على اللسان، ولا تصل إلى القلب؛ لأنه إذا قالها على اللسان ولم تصل إلى القلب لا ينتفع بها، بل لا بد أن يشعر في تلك الحال أنه مفتقر إلى الله، وأنه معتمَص به، وأن أمامه عدوًّا يهاجمه وهو الشيطان، ويلتجئ إلى مَنْ بيده ملكوت كل شيء وهو الله - عز وجل -.

الثاني: أن ينتهي، أي يُعْرِض عن هذا، ويتركه كأنه لا شيء، ويلهي عنه، ولا يلتفت إليه.

كثير من الناس يأتيه الشيطان في مسألة الوضوء ويقول له: إنك أحدثت، فيبدأ يشكك: هل أحدثت أو لا؟ نقول: استعذ بالله، وانته عن هذه الوسوس، ولا تخرج من المسجد أو تقطع الصلاة حتى تسمع صوتًا أو تجد ريحًا.

أما الذين قتلوا في سبيل الله فإنهم شهداء بلا شك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

والذين قتلوا في سبيل الله هم الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا فقط، لا يقاتلون لقومية، ولا لمبدأ غير إسلامي، فمن قاتل للقومية فهو خاسر، ومن قاتل للوطنية فهو خاسر، ومن قاتل ليرى مكانه فهو خاسر، ومن قاتل رياءً فهو خاسر.

المقاتل الذي إذا قُتِلَ فهو شهيد هو الذي قاتَلَ لهذا الغرض: لتكون كلمة الله هي العليا، هذا هو المقاتِل في سبيل الله، وهو الشهيد، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل ليرى مكانه: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١)، هذا هو الشهيد، يعني: وهؤلاء ليسوا في سبيل الله، فمن قاتَلَ لغير ذلك فليس في سبيل الله.

ولهذا جاء في الحديث: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ - يعني: ما من مجروح يجرح في الجهاد، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ. هذه الجملة مهمة، يعني: ما كل من قتل في معركة الجهاد يكون عند الله شهيداً، قد يكون في رأينا شهيداً، ولكنه عند الله ليس بشهيد؛ لأنه قال: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلِمُهُ يَذْمَى، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرَّيْحُ رِيحُ مَنْسِكٍ»^(٢).

والقاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتل معنيين لا يتناقضان فإنها تحمل عليهما جميعاً؛ لأن ذلك أوسع في مدلولها، فإن كانا يتناقضان رجح ما يترجح، وترك الآخر.

مثال المعنيين اللذين لا يتناقضان: هذه الآية، فإذا فسرت الشهداء بالعلماء وبالذين قتلوا في سبيل الله لم تتناقض.

(١) أخرجه بمعناه البخاري في كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً (١٢٣)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (١٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله (٢٨٠٣)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد (١٨٧٦).

وكذلك أمثلة أخرى مثل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨]، معنى ﴿عَسَسَ﴾ أقبل، وقيل: معناه أدبر، ولا تناقض بين المعنيين؛ لأن الصبح حين إقباله وإدباره آية من آيات الله، فهو آية من آيات الله في حال الإقبال وفي حال الإدبار، ولهذا أقسم الله بالليل إذا عسس، وبالصبح إذا تنفس، يعني: أقسم الله بالليل في حال إقباله وفي حال إدباره؛ لأن إقباله وإدباره كلاهما من آيات الله - جل وعلا -.

أما إذا تناقض المعنيان فيجب الترجيح مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیْنَ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والقروء جمع قرء - بالفتح - فُسِّرَ الْقُرْءُ بالحيض، وفسر القرء بالطهر، ومعلوم أنه يختلف المعنى، ولا يمكن أن يلتزم المعنى هذا مع ذاك، بل المعنى إما كذا، وإما كذا، فالمعنيان يتناقضان، ولا يمكن أن يتفقا، وحينئذ نعمل بالترجيح، والراجع أن القرء هو الحيض؛ لأن النبي ﷺ قال في المستحاضة: «دَعِيَ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ»^(١)، يعني أيام حيضك.

على كل حال: فليس هذا المقام مقام بيان وجه الرُّجْحَان، ولكن أريد أن أمثل لهذه القاعدة.

والحاصل أن القاعدة التفسيرية: إذا احتملت الآية معنيين لا يتناقضان حُمِلَتْ على المعنيين جميعاً؛ لأن حملها على المعنيين جميعاً أوسع في مدلولها، وإذا كان المعنيان يتناقضان وجب الترجيح، وعَمِلْنَا بالراجع.

(١) أخرجه الدارقطني (٢١٢/١).

وهنا مسألة: لو قُتِلَ الإنسان مظلوماً باعتداء عادٍ باغٍ عليه فهل يكون شهيداً؟

الجواب: نعم، يكون شهيداً، وقَاتِلُهُ يكون في النار، فإن النبي ﷺ سئل فقيل له: يا رسول الله، رجل أتى يريد مالي، قال: «لَا تُعْطِهِ»، قال: أرأيت إن قَاتَلَنِي، قال: «قَاتِلُهُ»، قال: أرأيت إن قَتَلَنِي، قال: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، قال: أرأيت إن قَتَلْتُهُ، قال: «هُوَ فِي النَّارِ»^(١)، فجعل النبي - عليه الصلاة والسلام - الباغي الذي يعتدي على المسلم ليأخذ ماله إذا قُتِلَ جعله في النار، وأما المعتدى عليه إذا قَاتَلَ دفاعاً عن ماله فإنه يكون شهيداً.

وبهذا نعرف أنه ليس كل إنسان يقتل يكون شهيداً، بل الشهادة حكم من الله، فمن حكم الله له بالشهادة فهو شهيد، ومن لم يحكم الله له بالشهادة فليس بشهيد.

فإذا رأينا شخصاً قاتل مع الذين يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وقُتِلَ فلا يصح أن نشهد له بعينه أنه شهيد، ونقول: هذا الرجل شهيد؛ لأن الشهادة بالعين تحتاج إلى نص من الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعثمان بن عفان - رضي الله عنه - شهد لهما بالشهادة؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - شهد لهما، لما صعد النبي ﷺ جبل أُحُدٍ في المدينة، وكان معه أبو بكر وعمر وعثمان

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال (١٤٠).

- رضي الله عنهم - فلما صعدوا عليه ارتج بهم الجبل - يظهر لي والعلم عند الله أنه ارتج فرحاً بهؤلاء الذين ركبوا على ظهره أو لإظهار آية من آيات الله - فقال النبي ﷺ: «اثْبُتْ أَحَدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»^(١)، النبي: محمد ﷺ، والصَّدِّيق: أبو بكر - رضي الله عنه - والشهيدان: عُمَرُ وعُثْمَانُ - رضي الله عنهما -.

عمر - رضي الله عنه - شهيد الصلاة، طُعِنَ وهو بين يَدَي ربه - عز وجل -، كان - رضي الله عنه - إذا دخل المسجد يسوي الصفوف كما كان إمامنا ونبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - يسوي الصفوف، لما تقدم وكَبَّرَ لصلاة الفجر - رضي الله عنه - صرَخَ، وقال: أكلني الكلب، لا يعني هذا الكلب البهيم، يعني: هذا الخبيث الذي هو أَخْبَثُ من الكلب، وهو أبو لؤلؤة المجوسي؛ لأن المجوس لا شك أن في صدورهم حَنَقًا على شريعة الإسلام، وخصوصًا على عمر - رضي الله عنه - الذي أَسْقَطَ الله على يديه إيوانَ كِسْرَى.

فطُعِنَ عمر - رضي الله عنه - بِخَنْجَرٍ لَهُ وَجْهَانِ، وَقَبَضَتْهُ فِي الْوَسْطِ؛ لأن الخبيث يريد أنه كلما جاء أحد حوله ضرب يمينًا وشمالًا، ولكن الصحابة لَحِقُوا به وطُعِنَ أكثر من عَشْرَةٍ، وَأَلْقُوا عليه بساطًا حتى نَحَرَ نَفْسَهُ، والعياذ بالله^(٢).

عثمان - رضي الله عنه - شهيد المَصْحَف، دخل عليه الخوارج وهو

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت...» (٣٦٧٥).

(٢) انظر صحيح البخاري في كتاب المناقب، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان (٣٧٠٠).

يقرأ فقتلوه في بيته، حتى ذكر بعض المؤرخين أن قطرة من دمه سقطت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]^(١).
ومن الشهداء أيضًا علي - رضي الله عنه - وغير هؤلاء كثير، لكن هذا على سبيل التمثيل.

أما مَنْ لم يشهد له الرسول ﷺ فإننا لا نشهد له، لكننا نرجو له ذلك، ولنا أن نقول بكلمة عامة: مَنْ قتل في سبيل الله فهو شهيد.
وأضرب مثلاً بوضح هذا، يصح أن أقول: أشهد أن كل مؤمن في الجنة، ولكن لو كان عندنا رجل معروف بالصلاح والإيمان فلا يصح أن نشهد له بالجنة، ولكن نقول: هذا الرجل يرجى أن يكون من أهل الجنة ولا نشهد له بعينه.

وقد ترجم البخاري - رحمه الله - على هذه المسألة في صحيحه، فقال: باب: لا يقال: فلان شهيد، واستدل لذلك بدليلين:

الأول: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَاءَ وَجُرْحُهُ يَنْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدِّمِ وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ»^(٢)، يؤخذ هذا من قوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ»، يعني: الله أعلم بمن يجرح في سبيله، فقد يجرح الإنسان في الجهاد، ولا يكون من الشهداء.

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٧٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٩٣)، وقد استدل بهذا الحديث في باب: لا يقال: فلان شهيد معلقاً.

والثاني: أن رجلاً شجاعاً مقداماً كان مع النبي ﷺ في غزوة، وكان لا يدع شاذةً ولا فاذةً للعدو إلا أتى بها وقضى عليها، فقال النبي ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فعظم ذلك على الصحابة وشق عليهم: كيف يكون هذا الرجل الشجاع المقدم من أهل النار؟ فقال أحد الصحابة: والله، لَا لَزِمَتْهُ - يعني: أصحابه وأتباعه وأنظر ماذا تكون النتيجة أو العاقبة - فأصيب هذا الرجل المقدم بسهم فجزع، ثم أخذ سيفه ووضع بين ثَنَدَوَتَيْهِ في صدره، ثم اتكأ عليه حتى خرج من ظهره، يعني أنه قتل نفسه وانتحر، فجاء الرجل الذي لَزِمَتْهُ إِلَى النبي ﷺ وقال: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قال: «وَيْمَ؟» - أي: ما الموجب أنك تأتي تشهد أني رسول الله؟ - قال: إن الرجل الذي قلت: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فعل كذا وكذا، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

فاستدل البخاري - رحمه الله - على أننا لا نشهد لشخص بعينه أنه شهيد، وإن قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْجِهَادِ.

لكن نقول على سبيل العموم: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري أثرًا عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه خطب الناس وقال: «تَقُولُونَ فِي مَغَارِيكُمْ: فَلَانٌ شَهِيدٌ، وَمَاتَ فَلَانٌ شَهِيدًا، وَلَعَلَّهُ قَدْ يَكُونُ قَدْ أَوْفَرَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب لا يقال: «فلان شهيد» (٢٨٩٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١٢).

رَاحِلَتُهُ، أَلَا لَا تَقُولُوا ذَلِكَمُ، وَلَكِنْ قُولُوا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(١)، هذا عموم.

الطبقة الأخيرة: الصالحون: وهم الذين صلحوا في ظاهرهم وباطنهم، وصلاح الإنسان يكون بفعل الأوامر وترك النواهي، لكنه لا يصل إلى درجة الصديقية والشهداء، بل يكون دون ذلك.

فالصالح مَنْ قام بحق الله وحق العباد وإن لم يصل إلى مرتبة الصَّدِيقِيَّةِ والشَّهَادَةِ، يعني: أبرأ ذمته فأتى بالواجب، ولم يأت بالمكملات؛ لأنه لو جاء بالمكملات لارتقى إلى الصديقية أو الشهادة، لكنه أتى بما يجب عليه فكان من الصالحين، ولا شك أنه كلما فعل الإنسان ما يكمل به دينه كان ذلك أتم في صلاحه.

فإن قال قائل: في هذه الآية قال الله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف الصراط إلى غيره، وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴿[الشورى: ٥٢-٥٣]، وفي آية ثالثة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فأضاف الصراط إلى نفسه، فما وجه الجمع؟

الجواب: الجمع بينهما سهل، فنقول: أضيف الصراط إلى الله لأمرين:

الأمر الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده، وشرعه لهم.

(١) أخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقاء (٣٣٤٩)، وأحمد (٤٠ / ١).

والأمر الثاني: أنه موصل إليه كما لو قلت مثلاً: هذا طريق مكة،
يعني: يوصل إليها.

ووجه إضافته إلى الذين أنعم الله عليهم؛ لأنهم هم الذين رَضَوْه
وسلكوه، فأضيف إليهم كما تقول مثلاً: هذا شارع فلان إذا كان هو
الذي يمشي فيه، ويسير عليه.

إذن: لا تناقض بين الآيات؛ لأن كل واحدة منها حُمِلَتْ على وجه
لا يناقض ما حملت عليه الآية الأخرى، وذلك لأن القرآن لا يمكن أن
يتناقض بعضه مع بعض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يمكن أن يتناقض القرآن مع صحيح السنة،
ولا يمكن أن تتناقض السنة الصحيحة بعضها مع بعض أبداً، فإن
تراءى لك تناقض فأعِدْ النظر مرةً بعد أخرى حتى يتبين لك أن لا
تناقض، فإن لم يتبين فاعلم:

- أن علمك قليل؛ لأنك لم تعرف الأدلة التي يكون بها جمع.
 - وأن فهمك ثقل؛ لأنك بليد لا تعرف كيف تجمع بين النصوص.
- أما مع العلم والفهم فإنه لا يمكن أن يوجد تناقض في كتاب الله،
ولا تناقض في سنة رسول الله ﷺ، ولا تناقض بين كتاب الله - عز وجل
- وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.



﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴾

هذه بدل من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو وصف، يعني: أنك تسأل الله أن يجنبك هذين الطريقين:

الأول: طريق المغضوب عليهم.

والثاني: طريق الضالين.

والمغضوب عليهم هم كل من علم بالحق وخالفه ولم يعمل به، وفي مقدمتهم اليهود الطغاة المعتدون الذين اعتدوا على الله، وعلى رُسله.

إذن: المغضوب عليهم هم العالمون غير العاملين، يعني الذين علموا الحق وخالفوه، وفي مقدمتهم اليهود؛ وذلك لأنهم علموا الحق ولم يعملوا به، علموا أن محمداً رسول الله، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فعصوا الله عن علم، فصاروا مغضوباً عليهم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ مُثَبَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَظْبٍ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والذي جعل الله منهم القردة والخنازير اليهود، ودليل ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمُ

وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿[الأعراف: ١٦٣-١٦٦]﴾، قلبهم الله قردةً، هؤلاء القوم على بلد على البحر في غاية ما يكون من النعيم، فسقوا فانقسموا ثلاثة أقسام: قسم فسقوا، وقسم صلحوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وقسم سكتوا، بل قالوا للناهين عن المنكر: ﴿لَمْ نَعْظُوكَ فَمَا آلَهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

هناك أيضًا أمة أخرى حرم الله عليهم أن يصطادوا الحيتان من البحر يوم السبت، وابتلاهم الله، فصارت الحيتان يوم السبت تأتي بكثرة شُرْعًا على الماء، وفي بقية الأسبوع لا تأتي، واليهود - كما نعلم - أصحاب أموال، يحبون المال حبًا عظيمًا، قالوا: كيف تأتي الحيتان يوم السبت ولا تأتي في غيره؟ عجزوا أن يصبروا عنها، قالوا: لا بد أن نفعل حيلةً، فتحيلوا على ذلك، فوضعوا شبكًا في الماء، يضعونه يوم الجمعة، وتأتي الحيتان يوم السبت، فتدخل في الشبك، فإذا كان يوم الأحد جاؤوا وأخذوا الحيتان، فتحيلوا على محارم الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، فصارت هذه الأمة (أمة القرية التي كانت حاضرة البحر) على هذه الحال.

ومن الناس من يعلم الحق ولكن لا يعمل به، وأضرَب لها مثلًا بسيطًا: يعلم أن بر الوالدين واجب، ولكن لا يبر والديه، هذا علم الحق، ولكن لم يعمل به.

علم أن صلة الرحم واجبة، ولكنه لم يصل رحمه، هذا فيه شبه من اليهود؛ لأنه علم الحق، ولكن لم يعمل به.

علم أن صلاة الجماعة في الصلوات الخمس واجبة، ولكن لم يصل مع الجماعة، هذا أيضًا فيه شبه من اليهود؛ لأنه علم الحق ولم يعمل به.

ومن هنا نعرف أن العالم الذي لا يعمل بعلمه على خطر عظيم؛ لأنه يشبه اليهود، قال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: مَنْ فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود.

فالذي يفسد من العلماء - يعني يعلم الحق ولا يقوم به - هذا فيه شبه من اليهود؛ لأن اليهود علموا الحق ولم يعملوا به.

فويل للعلماء إذا لم يعملوا بما عملوا، إنهم أشباه اليهود، إنهم أصل الضلال؛ لأن العامة تقتدي بعلمائها، فإذا ضل العلماء - والعياذ بالله - ولم يعملوا بالحق أضلوا غيرهم، نعوذ بالله من هذه الحال.

ولا تظنوا أن العالم ينحصر بمن يحمل شهادة الدكتوراه، أو الذي يتخرج من كلية، أو الذي يلزم ركب العلماء حتى يقال: فلان طالب علم، ولكن كل مَنْ علم مسألة فهو عالم بهذه المسألة، يعني: لو تعلم مسألة واحدة فأنت عالم بها، ولهذا قال إمامنا ونبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(١) واحدة، ولم يقل: بلغوا عني إذا كنتم علماء فطاحل، ولهذا مَنْ حفظ من دين الله مسألة واحدة قامت عليه الحجة في هذه المسألة، ووجب عليه أن يعمل بها، ووجب عليه أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

يبلغها، «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

ولكن احرص على أن تفهم الحق كما هو، ولا تخطئ في الفهم؛ لأن كثيراً من الناس قد يخطئون في الفهم بناءً على ظنهم، فالإنسان غير معصوم من الخطأ في الفهم.

فيجب على مَنْ علم مسألة أن يتحقق من فهمها قبل أن يُبلِّغ الناس، ولا يأخذها سطحياً ثم يذهب بيلغ، فقد يبلغ خطأ، بل يجب أن يتحقق من المسألة من عالم، أو إن كان يستطيع أن يستخلصها من كتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - وما يتعلق بهما من تفسير أو شرح، فإذا تحقق أنها حق فليُبلِّغ، وليدعُ الناس إليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هم كل مَنْ لم يعلم بالحق، وصار يعبد الله على جهل، ويتخبط في عبادته خَبَطَ عَشَوَاءَ، وفي مقدمتهم النصاري قبل بعثة النبي ﷺ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني عيسى ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] يعني أن الله ما فرض عليهم هذه الرهبانية لكن هم يريدون رضوان الله، ولكن ضلوا عن ذلك، فكانوا ضالين يريدون الحق، ولكنهم عَمُوا عنه ولم يهتدوا إليه.

وأما بعد بعثة الرسول ﷺ وعلمهم به وبلوغ الرسالة لهم فصاروا من المغضوب عليهم مثل اليهود؛ لأنهم علموا الحق وخالفوه، وقاتلوا المسلمين في قديم الزمان وحديثه، أو أعانوا من يقاتل المسلمين في حديث الزمان، فكما أن اليهود علموا بصحة نبوة عيسى ﷺ، ولكنهم

لم يتبعوه، هكذا النصارى علموا بصحة رسالة محمد ﷺ ولم يتبعوه، إذن لا فرق بينهم وبين اليهود، فالجميع بعد بعثة الرسول ﷺ مغضوبٌ عليهم.

وهناك عُبَاد من المسلمين يحبون العبادة، لكن عندهم طرق مبتدعة، هؤلاء يَلْحَقُونَ بالضالين، ففيهم شبه من النصارى، فهم من الضالين الذين أرادوا الحق ولكن ضلوا عنه، قال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى»؛ لأن النصارى عبدوا الله على ضلال، واليهود استكبروا عن عبادة الله عن عَمْدٍ وَعِلْمٍ.

والواجب على العلماء الذين يعلمون الحق أن يتصلوا بهؤلاء الذين يريدونه ولكن ضلوا عنه، ويهدوهم إلى الحق، ويبينوه لهم، ولا ينفروا منهم؛ لأن بعض الناس إذا رأى أحداً مبتدعاً نفر منه، وصار ذَيْدُهُ أَنْ يَسْبُهُ ولا يتصل به، والواجب أن يتصل به، وَيُيَسِّنَ له أن هذا الذي هو عليه مخالف لشريعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حتى يهديه الله على يديه.

وأَسْبَابُ الخُروجِ عن الصراط المستقيم: إما الجهل أو العناد، والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوبُ عليهم، وعلى رأسهم اليهود، والآخرون الذين سببُ خروجهم الجهل كل مَنْ لا يعلم الحق، وعلى رأسهم النصارى، وهذا يخص من كانوا قبل البعثة - أعني النصارى - أما بعد البعثة فقد علموا الحق وخالفوه، فصاروا هم واليهود سواءً، كلهم

مغضوب عليهم، بل هم أشد؛ لأنهم يؤمنون بالنسخ، ولهذا يؤمنون بأن
 شريعة عيسى - عليه الصلاة والسلام - ناسخة لشريعة موسى - عليه
 الصلاة والسلام - واليهود لا يؤمنون بذلك، فهم على جادة باطلة،
 وأولئك تناقضوا فأمنوا بنسخ الشرائع في شريعة عيسى - عليه الصلاة
 والسلام - بالنسبة لشريعة موسى - عليه الصلاة والسلام - ولم يؤمنوا
 بنسخ الشرائع في شريعة محمد ﷺ بالنسبة لشريعة عيسى - عليه الصلاة
 والسلام - فكانوا متناقضين، وكان طريقهم أخبث من طريق اليهود.

إذن: فات اليهود من الهدى هدى التوفيق؛ لأنهم علموا الحق،
 والذي فات النصارى هدى الدلالة؛ لأنهم ضلوا عنه، والعياذ بالله.

فانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم، وهم الذين
 علموا الحق وعملوا به، وقسم مغضوب عليهم، وهم الذين علموا
 الحق ولم يعملوا به، وقسم ضالون، وهم الذين عملوا بغير علم، وقد
 سبق بيان هذه الأقسام^(١).

وإنما قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم خالفوا عن علم،
 والمخالف عن علم أشد كبراً واستكباراً وإثماً وعقوبةً من الذين خالفوا
 عن غير علم، وكلتا الطائفتين ضالة؛ لأنها على غير هدى من الله.

ويستفاد من هذا أنه يقدم الأشد فالأشد؛ لأنه تعالى قدّم المغضوب
 عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفةً للحق من الضالين، فإن المخالف
 عن علم يصعب رجوعه بخلاف المخالف عن جهل.

(١) انظر (ص ٧٦)، و(ص ٩٦).

قد تقول: ألا يكتفى بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الأصناف الأربعة الذين علموا الحق وعملوا به، فكيف جاءت ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟

نقول: هذا من باب تأكيد كمال المثبت، المثبت هو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، حتى لا يكون في هذا الصراط ولا جزء يسير من صراط المغضوب عليهم والضالين، فهذا من باب تأكيد الكمال كما أن صفات الله السلبية (النفي) تتضمن ثبوت كمال ضدها، فإذا قيل: ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فالمعنى أنه لكمال عدله ليس هناك ظلم في فعله، ولا في حكمه.

إذن: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تأتي لأجل كمال ذلك الإثبات في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ حتى لا يكون في هذه الهداية شيء من الضلال أو شيء من موجبات الغضب.

فواجبك - أيها المؤمن بالله ورسوله - أن تعلم لتعمل حتى تكون من الذين أنعم الله عليهم، تعلم لتخرج من مشابهة النصارى، وتعمل لتخرج من مشابهة اليهود.

وهنا يقال: لماذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مع أنه قال: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؟

فالجواب: لأن النعمة من الله، فهداية الذين أنعم عليهم فضل محض من الله، والغضب يكون من الله ومن غيره، فإذا غضب الله على أحد فكل المؤمنين بالله يغضبون عليه، ولهذا فاليهود مغضوب عليهم

من قِبَلِ الله، ومن قِبَلِ الرسل، ومن قِبَلِ الصديقين والشهداء والصالحين، وهذا من بلاغة القرآن حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

فصارت هذه السورة الكريمة تشتمل على غُررٍ من الدعاء لها أهمية عظيمة في حياة الفرد والمجتمع أيضًا.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قراءتان سبعيتان: إحداهما: ضم الهاء، والثانية: كسرها.

واعلم أن القراءة التي ليست في المصحف الذي بين أيدي الناس لا ينبغي القراءة بها عند العامة؛ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هذا القرآن العظيم الذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه، واحترامه، إذا رأوه مرةً كذا، ومرةً كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفَرِّقون.

الوجه الثاني: أن القارئ يُتَّهَمُ بأنه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامة بما لا يعرفونه، فيبقى هذا القارئ حديث العوام في مجالسهم.

الوجه الثالث: أنه إذا أحسن العامي الظن بهذا القارئ، وأن عنده علمًا بما قرأ فذهب يقلده، فربما يخطئ، ثم يقرأ القرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها، وهذه مفسدة.

ولهذا قال عليّ - رضي الله عنه -: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ،

أُتْحِبُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(١)، وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»^(٢)، وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما سمع هشام بن الحكم - رضي الله عنه - يقرأ آية لم يسمعها عمر - رضي الله عنه - على الوجه الذي قرأها عليه هشام - رضي الله عنه - جَبَذَهُ، وَتَلَّهُ، وَخَاصَمَهُ، وَأَنْكَرَ قِرَاءَتَهُ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُشَامٌ - رضي الله عنه -: «اقْرَأْ»، فَلَمَّا قَرَأَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَكَذَا أَنْزَلْتُ»، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ - رضي الله عنه -: «اقْرَأْ»، فَلَمَّا قَرَأَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَكَذَا أَنْزَلْتُ»^(٣)؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَكَانَ النَّاسُ يَقْرَءُونَ بِهَا حَتَّى جَمَعَهَا عُمَانٌ - رضي الله عنه - عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ حِينَ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَحْرَفِ، فَخَافَ - رضي الله عنه - أَنْ يَشْتَدَّ الْخِلَافُ، فَجَمَعَهَا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ حَرْفُ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ بُعِثَ مِنْهُمْ، وَنُسِيتِ الْأَحْرَفُ الْأُخْرَى، فَإِذَا كَانَ عُمَرُ - رضي الله عنه - فَعَلَ مَا فَعَلَ بِصَحَابِيٍّ فَمَا بِالكَ بَعَامِيٍّ يَسْمَعُكَ تَقْرَأُ غَيْرَ قِرَاءَةِ الْمُصْحَفِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَهُ؟! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ: مَا دَامَ الْعُلَمَاءُ مُتَّفِقِينَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ يَقْرَأَ الْإِنْسَانُ بِكُلِّ قِرَاءَةٍ، وَأَنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنَ الْقِرَاءَاتِ فَلَا بَأْسَ، فَدَعِ الْفِتْنَةَ وَأَسْبَابَهَا.

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة (١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٤١٩)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (٨١٨).

وفي النهاية يقول القارئ: «آمين»، وآمين اسمُ فعلٍ بمعنى استجب.
وتقول: آمين بدون تشديد الميم؛ لأنك لو شددت الميم وقلت:
آمِين فسد المعنى، يكون معناها قاصدين كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يُلْهَوْنَ عَنْهُوَ وَلَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَلْهَوْنَ عَنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا يَسْتَنْصِفُ وَلَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَآلَهُ الَّذِينَ
أَلْحَمُوا﴾ [المائدة: ٢٠] أي قاصدين.

وعلى كل حال فهذه السورة عظيمة؛ ولا يمكن لي ولا لغيري أن
يحيط بمعانيها العظيمة، لكن هذا قطرةٌ من بحر، ومن أراد التوسع في
ذلك فعليه بكتاب (مدارج السالكين في شرح منازل السائرين) للحافظ
ابن القيم - رحمه الله -، ففيه خير كثير، ينتفع به القارئ انتفاعاً بالغاً لأنه
تكلم في شرح الفاتحة بكلام عظيم جداً لا تجده في كتب المفسرين ولا في
غيرهم.

وفي الحقيقة لو أن أحداً من الناس تسر له أن يقرأ هذه السورة بتمعنٍ
ونظر ومراجعة لكلام أهل العلم فيها لَوَجَدَ فيها معاني عظيمة جداً.

أسأل الله العلي العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم مع الذين أنعم
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رفيقاً، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك
على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين.

الفهرس

- تقديم ٥
- كلام ابن تيمية حول أهمية تعلم معاني كتاب الله ٧
- هدي السلف الصالح خاصة الصحابة مع القرآن ٨
- من لم يعمل بما علم يكون كالخمار ٨
- حالتنا نحن مع القرآن، وذم الله لهذا ٨
- لا يمكن لأي بشر أن يحيط بكلام الله ٩
- أسماء سورة الفاتحة ١١
- تعدد أسماء سورة الفاتحة، وتعدد الأسماء يدل على شأن المسمى ١١
- توضيح كيف كانت سورة الفاتحة أم القرآن ١١
- لماذا نص الله على سورة الفاتحة من بين بقية السور لما امتن على النبي ﷺ بالقرآن ١٣
- مميزات سورة الفاتحة ١٤
- لماذا أطلق الله اسم الصلاة على سورة الفاتحة في حديث أبي هريرة؟ ١٥
- لماذا قال في قوله: [مالك يوم الدين] (مجدي عبدي)؟ ١٦
- ينبغي للإنسان إذا قرأ الفاتحة ولا سيما في الصلاة أن يقف على كل آية ١٧
- إشكال: إذا كان في المسجد عشرة آلاف كلهم يقرؤون الفاتحة فهل يكلم الله واحداً منهم أو الكل؟ ١٨
- قصة القوم الذين لم يضيفوا سرية رسول الله ﷺ فلدغ سيدهم ١٩

- لماذا طلب النبي ﷺ من السرية الذين قرؤوا على اللديغ أن يضربوا له معهم
بسهام؟ ١٩
- المفتي إذا فعل ما يفتي به صار ذلك أبلغ طمأنينة في المفتي، وقصة ابن تيمية في
ذلك ١٩
- القراءة على المريض لا تنفع إلا بثلاثة شروط ٢٠
- أول ما نزل من القرآن هو ٢٠
- اشتملت سورة الفاتحة على آداب الدعاء، كيف ذلك؟ ٢٠
- من بدع بعض الناس في سورة الفاتحة ٢١
- قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٢٢
- تقدير متعلق الجار والمجرور في (باسم الله) ٢٢
- عموم كلمة (اسم) في (باسم الله) ٢٢
- لماذا قدر متعلق الجار والمجرور في البسملة متأخراً؟ ٢٣
- لماذا قدر متعلق الجار والمجرور في البسملة فعلاً؟ ٢٣
- لفظ (الله) أصل الأسماء، وكلها تابعة له غالباً ٢٣
- معنى اسم الله (الرحمن)، ولماذا جاء على صيغة فعلاً؟ ٢٤
- معنى اسم الله (الرحيم)، ولم جاء على صيغة فعيل؟ ٢٤
- اسم الله (الرحمن) و(الرحيم) يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى
الأثر ٢٤
- الرحمة التي أثبتها الله لنفسه دل عليها السمع والعقل ٢٤

- ٢٤..... تحريف بعض الطوائف صفة الرحمة إلى معانٍ أخرى
- ٢٥..... الجواب على تحريف صفة الرحمة إلى معانٍ أخرى
- العجب ممن أثبت بعض صفات الله بحجة عقلية أخفى من دلالة العقل على
- ٢٥..... صفة الرحمة
- ٢٦..... مسألة: هل البسملة آية من الفاتحة أو لا؟
- ٢٦..... العدد الذي في المصاحف مبني على أن البسملة من الفاتحة
- ٢٦..... ترجيح الشيخ رحمه الله في هذه المسألة
- ٢٦..... دلالة النص على أن البسملة ليست من الفاتحة
- ٢٧..... دلالة السياق من حيث المعنى على أن البسملة ليست من الفاتحة
- ٢٨..... دلالة السياق من حيث اللفظ على أن البسملة من الفاتحة
- ٢٩..... هل البسملة آية من بقية السور؟
- ٢٩..... خطأ بعض العوام فيما اعتقدوه في سبب سقوط البسملة من سورة براءة
- ٣٠..... قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
- ٣٠..... ما هو الحمد؟
- ٣٠..... خطأ تعريف الحمد بأنه الثناء بالجميل الاختياري
- ٣٠..... الفرق بين الحمد والثناء
- ٣٠..... الحمد له سببان
- ٣١..... أمثلة من القرآن على حمد الله على كمال صفاته
- ٣١..... من أمثلة قدرة الله موت الخلق كلهم في لحظة، ثم إحيائهم

- من أدلة قدرة الله ما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام من فلق البحر ٣١
- المؤكدات الثلاثة التي أكد بها من مع موسى في قولهم (إنا المدركون) ٣٢
- قال بعض المفسرين: جعل الله في الأطواد فرجاً ليطمئن بنو إسرائيل بعضهم على بعض ٣٢
- لماذا يقيد الحمد بأنه لا بد أن يكون عن محبة وتعظيم؟ ٣٤
- معنى (أل) في قوله: (الحمد) ٣٥
- معنى اللام في قوله (الله) ٣٥
- هل يحمد غير الله؟ ٣٥
- ماذا كان يقول النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره، وإذا أصابه خلاف ذلك؟ ٣٥
- من هو الرب؟ ٣٦
- هل الإنسان الآلي يعد من مخلوقات البشر؟ ٣٧
- الفرق بين ملك الله وملك غيره ٣٧
- الجواب عن الآيات التي فيها إثبات الملك لغير الله ٣٨
- تدبير الله لجميع الأمور بما تقتضيه حكمته ٣٨
- الفرق بين تدبير الله وتدبير غيره ٣٨
- تدبير الله لا يكون إلا لحكمة ٣٩
- ما معنى العالمين؟ ٤٠
- اشتقاق لفظ العالمين ٤٠
- دلالة مخلوقات الله عليه سبحانه وتعالى ٤١
- الفرق بين العالمين والعالمين ٤٢

- ٤٣..... قول الله (الحمد لله رب العالمين) هل هو خبر أو فيه معنى الأمر؟
- ٤٣..... لماذا قدم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؟
- ٤٤..... قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾
- ٤٤..... إعراب قوله (الرحمن الرحيم)
- ٤٤..... رحمة الله العامة تشمل حتى الكافر
- ٤٤..... رحمة الله بالكافر نعمة من وجه نقمة من وجه. كيف ذلك؟
- ٤٦..... معنى (الرحيم)
- ٤٦..... ربوبية الله مبنية على الرحمة
- ٤٧..... كل ما صدر من الله عز وجل فإنه رحمة حتى النقم التي تصيب الناس
- ٤٨..... قصة الشاب الذي اهتدى لما مات أبوه
- ٤٨..... انتقام الله من المجرمين رحمة، كيف ذلك؟
- ٤٨..... تحريف بعض الطوائف صفة الرحمة لله
- ٤٩..... من الذي فسر الرحمة بالإحسان أو إرادة الإحسان؟
- كل من نفى صفة من صفات الله بحجة عقلية فإن هذه الحجة تكون دليلاً عليه
- ٥٠.....
- ٥١..... قوله تعالى: ﴿تِلْكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾
- ٥١..... إعراب قوله تعالى: [مالك]
- ٥١..... لماذا سمي يوم الدين بهذا الاسم؟
- ٥١..... كلمة الدين في القرآن يراد بها أحد معنيين: العمل، والجزاء، وأمثلة ذلك ...

- القراءات الواردة في قوله تعالى: [مالك] ٥١
- تنبيه حول قول بعض العلماء أن الأولى أن الإنسان يقرأ [مالك] بإثبات الألف ٥٢
- فوائد التنويع في قراءة القراءات الواردة عن النبي ﷺ ٥٢
- يشترط لجواز القراءة أن يتأكد الإنسان من ثبوتها ٥٣
- لا ينبغي أن يقرأ بالقراءات التي ليست معروفة عند عامة الناس ٥٣
- الفرق بين (مالك) و(ملك) من حيث اللغة ٥٤
- المعنى المترتب من الجمع بين القراءتين الواردتين في قوله تعالى: [مالك يوم الدين] ٥٤
- ما يفعل بعد موت الرئيس من تعظيم قبره أو زرع الأزهار عليه أو ما أشبه ذلك لا ينفعه ولا ينتفع به إطلاقاً ٥٥
- لماذا خص الملك بيوم الدين مع أن الله مالك للعالمين والآخرة؟ ٥٥
- قول الله تعالى: [مالك يوم الدين] يتضمن ثلاثة أمور ٥٧
- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** ٥٨
- إعراب قوله تعالى: [إياك نعبد] ٥٨
- كيف يستفاد من الآية حصر العبادة لله وحده؟ ٥٨
- إن قيل: إن الآية في العبادة، ولا إله إلا الله في الألوهية، فكيف صار معنى الآية لا إله إلا الله؟ ٥٨
- العبادة تطلق على معينين ٥٩

- تعريف العبادة على معنى كونها الفعل المتعبد به ٥٩
- من شرط العبادة أن تكون مما شرع للعباد للتقرب إليه ٥٩
- كيف يمكنك أن تجعل أكلك وشربك عبادة؟ ٥٩
- إذا أكلت للتعلم بنعمة الله عليك صار ذلك عبادة، لماذا؟ ٦٠
- تعريف العبادة على معنى كونها فعل العبد ٦٠
- بالمحبة يكون فعل الأوامر، وبالتعظيم يكون ترك النواهي ٦٠
- العبادة لا تصلح إلا لله عز وجل، وأمثلة على ما يفعله بعض الناس مما يكون مخلاً بالعبودية لله ٦١
- من تمام العبودية الحب في الله، والبغض في الله ٦٣
- من كان من عباد الله الصالحين فهو حبيبك في أي مكان من الأرض، وفي أي زمن من الأزمنة ٦٣
- تمام العبادة أن الله إذا أمر بأمر تقول: سمعنا وأطعنا ٦٣
- خطأ بعض الناس إذا سأل: هل الأمر للوجوب أو للاستحباب؟ ٦٣
- متى يصح للإنسان أن يسأل: هل الأمر للوجوب أو للاستحباب؟ ٦٤
- الحصر في قوله: [وإياك نستعين] ٦٦
- ينبغي لنا أن نستشعر عند فعل أي عبادة أننا نستعين الله ٦٧
- لماذا يجمع الله بين العبادة والاستعانة أو التوكل في مواطن كثيرة من القرآن؟ ٦٧
- يستفيد الإنسان بالاستعانة بالله فائدتين عظيمتين ٦٨
- الجواب عن النصوص التي فيها أنه يستعان بغير الله ٦٨
- الاستعانة تقع على وجهين ٦٩

- ٦٩..... الاستعانة بغير الله قسبان
- ٧٠..... الأولى ألا يستعين بأحد إلا عند الحاجة أو إذا علم أن صاحبه يسر بذلك ...
- ٧٠..... هل الاستعانة بالمخلوق إذا كانت جائزة تعد من المسألة المذمومة
- ٧٠..... ينبغي لمن طلبت من الإعانة أن يجيب في غير إثم
- ٧١..... من استعان بميت فقد ضل في دينه وسفه في عقله، كيف ذلك؟
- ٧٢..... ماذا تستحضر عند قراءتك [إياك نعبد وإياك نستعين]؟
- ٧٢..... الالتفات الواقع في سورة الفاتحة، وما هو الالتفات؟
- ٧٣..... فوائد الالتفات
- ٧٣..... فائدة الالتفات الواقع في سورة الفاتحة
- تنبيه حول ما يقوله بعض العوام عند سماع قول الله: [إياك نعبد وإياك نستعين]
- ٧٣.....
- ٧٣..... [وإياك نستعين] أبلغ من: استعنا بالله لوجهين
- ٧٥..... **قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾**
- ٧٥..... الهداية لها معنيان
- ٧٥..... الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام
- في قول الله: [اهدنا الصراط المستقيم] سؤال الله العلم النافع والعمل الصالح،
- ٧٥..... كيف ذلك؟
- ٧٥..... العلم لا يكون مفيداً إلا إذا كان مقروناً بالعمل
- ٧٥..... الناس ينقسمون إلى أربعة أقسام: جاهل، وعالم ملة، وعالم أمة، وعالم دولة.

- من أوصاف عالم الأمة أنه يجد المسألة خلافية، وأحد القولين أوسع من الآخر
 لكنه أبعد عن الشرع، فيفتي الناس به إرضاء لهم ٧٦
- كلمة (هدى) تتعدى بنفسها، وبحرف (إلى)، فما الفرق بينهما في المعنى ؟ ٧٨
- من بلاغة القرآن حذف جر الجر من قوله: [اهدنا الصراط المستقيم] ٧٨
- أقسام الهداية، وأمثلة على كل قسم ٧٨
- الله عز وجل قد هدى الناس كلهم هداية الدلالة ٧٨
- هداية الدلالة تكون من الله، ومن غير الله ٧٩
- هداية التوفيق قد يجرمها بعض الناس ٧٩
- قول الله: [اهدنا] ذكرها بصيغة الجمع مع أن السائل، فكيف يوجه ذلك ؟ ٧٩
- الضمير في قول الله: [اهدنا] على من يعود ؟ ٨٠
- قول الله: [الصراط] فيها قراءتان ٨١
- معنى الصراط ٨١
- لماذا خص الله الصراط بوصف [المستقيم] ؟ ٨١
- ما هو الصراط المعوج ؟ ٨١
- المراد بالصراط في الآية الصراط المعنوي، وليس الحسي ٨٢
- المعاني التي قيلت في الصراط المستقيم كلها تعود على الإسلام ٨٢
- لماذا وصف الصراط بكونه مستقيماً ؟ ٨٢
- اعتراضات من بعض الناس حول صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ٨٢
- الاعتراض الأول: حول تبرج المرأة ٨٢
- الاعتراض الثاني: حول الربا ٨٣

- ٨٣..... الاعتراض الثالث: حول حرية الفرد فيما يصنع
- خطأ تفسير بعض الناس لقولنا: (الإسلام صالح لكل زمان ومكان) أي: أنه خاضع لذلك ٨٣
- تمسك بعض الناس بقول النبي ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ٨٣
- الجواب عن الاعتراض الأول حول تبرج المرأة ٨٤
- وجهة نظر أصحاب الاعتراض الثاني حول الربا ٨٥
- الجواب عن الاعتراض الثاني ٨٥
- الربا قد لا يكون ظلمًا ٨٦
- الجواب عن الاعتراض الثالث حول الحرية الشخصية ٨٦
- الخمر رق لشاربها قبل كل أحد، كيف ذلك ٨٧
- دليل من السنة على أن شارب الخمر يتصرف كالمجنون ٨٧
- قصة ذكرها حول الوعاظ حول شارب خمر توضحاً بنجاسة ٨٨
- الجواب عن الاعتراض الرابع حول من قال: الأديان فيون الشعوب ٨٨
- ما هو الأفئون الحقيقي عند المنتسبين للإسلام؟ ٨٨
- الجواب عن الاستدلال بقول النبي ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ٨٩
- استدلال بعض الناس بتصرفات بعض الخلفاء في تغيير الحكم الشرعي لمصلحة رآها ٩١
- الجواب عما استدلو به ٩٢
- ما الذي يستفاد من كون قول الله: [اهدنا الصراط المستقيم] بعد قوله: [إياك نعبد وإياك نستعين]؟ ٩٢

- خطأ أولئك القوم الذين يكون لديهم غيرة وعاطفة تخرج بهم عن الحدود الشرعية، وأنهم لم يأتوا بالاستعانة على الوجه المطلوب ٩٣
- لا بد في العبادة من إخلاص واستعانة واتباع الشريعة، فصارت الآيات متضمنة للدين كله ٩٣
- قوله تعالى: ﴿مِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾** ٩٥
- إعراب قول الله: [صراط الذين أنعمت عليهم] ٩٥
- فائدة التفصيل بعد الإجمال ٩٥
- من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ٩٥
- الذين أنعم الله عليهم أربعة أصناف ٩٥
- يدخل في الذين أنعم الله عليهم الرسل ٩٦
- من هو النبي؟ ٩٦
- من هو الرسول؟ ٩٦
- هل كان آدم عليه الصلاة والسلام نبياً أو رسولاً؟ ٩٦
- أهمية استحضار أن الأنبياء داخلون في قول الله: [الذين أنعمت عليهم] ٩٦
- من هم الصديقون؟ ٩٦
- على رأس الصديقين أبو بكر رضي الله عنه ٩٧
- كذب الرافضة في دعواهم أن أبا بكر ليس خليفة وأنه ظالم لعلي ٩٧
- الصديقية درجة عظيمة تلي درجة النبوة ٩٧
- الشهداء فيهم قولان ٩٨

- ٩٨..... العلماء شهداء من وجهين
- ٩٩..... العلماء وإن كانوا شهداء إلا أنهم لا يعطون حكم شهيد المعركة
- ٩٩..... كلما كان الإنسان أعلم كانت شهادته بتوحيد الله أقوم وأؤكد وأعظم
- ٩٩..... من هم أولو العلم الذين يكونون من الشهداء؟
- ١٠٠..... تسلط الشيطان على طالب العلم
- ١٠٠..... الوسوس التي يلقيها الشيطان لا تؤثر على الإنسان، بل هي صريح إيمانه
- ١٠٠..... دواء الوسوس الشيطانية
- ١٠١..... الاستعاذة بالله من الشيطان لا بد أن تكون صادرة من قلب الإنسان
- ١٠١..... وسوسة الشيطان لبعض الناس في الوضوء
- ١٠١..... من هم الذي قتلوا في سبيل الله؟
- القاعدة التفسيرية أنه إذا احتملت الآية معنيين لا يتضادان فإنها تحمل عليهما جميعاً
- ١٠٢.....
- ١٠٣..... أمثلة على آيات تحتمل معنيين لا يتضادان
- ١٠٣..... إذا احتملت الآية معنيين يتناقضان وجب الترجيح، مثال ذلك
- ١٠٣..... لماذا تحمل الآية على المعنيين المحتملين جميعاً إذا كانا لا يتناقضان؟
- ١٠٤..... هل المقتول ظلماً شهيد؟
- ١٠٤..... من حكم الله له بالشهادة فهو شهيد، ومن لم يحكم له فليس بشهيد
- ١٠٤..... لا نشهد لمن قتل في سبيل الله أنه شهيد بعينه
- ١٠٤..... ممن يشهد لهم بالشهادة عمر وعثمان رضي الله عنهما، دليل ذلك
- ١٠٥..... لماذا ارتج الجبل بالنبي ﷺ وأصحابه لما صعدوا عليه؟

- لماذا المجوس فيهم حنق على عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ ١٠٥
- من لم يشهد له النبي ﷺ بالشهادة لا نشهد له، لكن نرجو له ذلك ١٠٦
- الشهادة العامة جائزة ١٠٦
- أدلة البخاري رحمه الله التي استدل بها على أنه لا يقال: فلان شهيد ١٠٦
- من هم الصالحون؟ ١٠٨
- الجمع بين الآيات التي فيها إضافة الصراط إلى الله، وبين الآيات التي فيها إضافة الصراط إلى غير الله؟ ١٠٨
- القرآن لا يمكن أن يتناقض بعضه مع بعض، ولا مع السنة الصحيحة، ولا السنة الصحيحة بعضها مع بعض ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ١١٠
- من هم المغضوب عليهم؟ ١١٠
- في مقدمة المغضوب عليهم اليهود ١١٠
- الدليل على أن اليهود مغضوب عليهم ١١٠
- قصة أصحاب السبت ١١١
- أمثلة على أقوام يعلمون الحق ولا يعملون به ١١١
- العالم الذي لا يعمل بعلمه على خطر عظيم ١١٢
- من هو العالم الذي يطالب العمل بما علم؟ ١١٢
- أهمية معرفة الحق على وجهه قبل التبليغ ١١٣
- من هم الضالون؟ ١١٣

- ١١٣..... في مقجمة الضالين النصارى
- ١١٣..... النصارى بعد بعثة النبي ﷺ من المغضوب عليهم
- الواجب على العلماء أن يتصلوا بمن ضل عن الطريق وبينوا لهم الطريق
- ١١٤..... الصحيح
- ١١٥..... النصارى قد يكونون أشد من اليهود في كونهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ
- ١١٥..... لماذا قدم الله ذكر المغضوب عليهم على الضالين؟
- ١١٦..... فائدة قول الله: [غير المغضوب عليهم ولا الضالين]
- لماذا قال الله: [غير المغضوب عليهم] ولم يبين الغاضب، وقال: [أنعمت عليهم]
- ١١٦..... فين المنعم؟
- ١١٦..... لماذا أسند النعمة لله وحده في هداية الذين أنعم عليهم؟
- ١١٧..... القراءات الواردة في قول الله: [عليهم]
- القراءة غير الموجودة في المصاحف الموجودة بين أيدي العوام لا ينبغي القراءة
- ١١٧..... بها لثلاثة أمور
- ١١٩..... لا يصلح تشديد الميم في قولك: آمين

